فواد سمیث

قس واکفیلد

828
G624vol

A.U.B. LIBRARY

مجلد
صالح الأثر
بيروت - لبنان

828
G-624vaa

# قس واكفيلد

تأليف
اوليفر غولد سميث

تعريب
حسن الناطور

ملتزم

الطبع والنشر

مطبعة البيان

ساحة رياض الصلح – بيروت

تلفون ٣٢٧٧٦

# المؤلف

## حياته في سطور

* اوليفر غولد سميث ، كاتب وروائى وشاعر ايرلندى ، اشتهر بنزوعه الى محاربة النظم والتقاليد الاجتماعية البالية ، في كتاباته ...

* ولد في العاشر من نوفمبر عام ١٧٢٨ ، في قرية «بالاس» من اعمال لونكفورد فى ايرلندا ، لاسرة رقيقة الحال ، وكان ابوه قسيس القرية آنئذ وله من الاولاد ثمان اصغرهم اوليفر ...

* هاجمه الجدرى في السادسة من عمره فطبع على وجهه تشويها ظل يسمه طيلة حياته ..

* في الثامنة من عمره ، ارسله ابوه الى مدرسه في القرية تديرها سيدة مسنة قالت انه «اغبى» طفل رأته في حياتها !.. لكن اوليفر لم يطق الحياة في ظل هذه المعلمة فارسله ابوه الى جندى متقاعد كان يعلم ابناء القرية القراءة والكتابة ويسرد على تلاميذه حكايات وأقاصيص عن الحروب واهوالها ، واساطير الجن والاشباح ومغامرات العمالقة والاقزام ، فالهبت هذه الاقاصيص مخيلة اوليفر ، واججت جذوته المتقدة ، ووجهته منذ هذه السن الغضة الى الأدب وميادينه الفسيحة .

* في السابعة عشرة من عمره ، التحق بكلية «ترينتى» في دبلن ، يتعلم فيها بالمجان مقابل بعض اعمال يؤديها لصالح الكلية.. لكنه لم يأبه لدروسه في الكلية ، فاخذ ينظم قصائد قصيرة يصور فيها جمال الطبيعة والحياة الريفية ، ولكن ادمانه على الخمر ولعب القمار وحاجته الملحة الى المال كانت تعذبه وتهصره ، فيجبر على بيع هذه القصائد مقابل خمس بنسات للقصيدة الواحدة ... ويذكر انه كان يخرج من الكلية متخفيا تحت جنح الظلام ليسمع قصائده تغنى في المسارح الشعبية المنتشرة بكثرة آنذاك - في القرى وقد سحرت الباب الجماهير .

* اتسمت فترة دراسته في دبلن بالقلق المستوفز وبغضه لرتابة معيشته هناك . فعزم على السفر والتجوال في المدن والقرى ، فرحل الى ايطاليا

وفرنسا وهولندا ، سائرا على قدميه متجولا في القرى والارياف ، يعزف للقرويين على مزمار كان يحمله معه وبهذه الطريقة ، كان يحصل طعامه ومبيته ..

* عاد اوليفر في العام ١٧٤٩ الى لندن ، عازما على كسب قوته بعرق جبينه وكد يمينه وكان اثناء غيابه عن بلاده ، قد درس الطب والصيدلة وحاول القيام باعمال مختلفة ، لكنه لم يبرع بواحدة منها اذ كانت نزعة الادب عنده غالبة على كل ما عداها وهكذا لم ينجح في عمل من الاعمال حتى كان تعرفه بالدكتور جونسون وكان زعيم الادب الانكليزى في القرن الثامن عشر بلا منازع . وكان له ندوة يختلف اليها الادباء والشعراء فكان فضل جونسون عليه كبيرا ، اذ لفت اليه الانظار ، فاقبل الناس على كتاباته يلتهمونها ..

* جمع غولد سميث في ادبه بين الشعر والنثر وعالج الرواية التمثيلية والقصة الطويلة بنجاح ملحوظ ، وله عدة مقالات في موضوعات مختلفة ، منها مقالات كان قد كتبها على لسان فيلسوف صينى جاء لندن مصورا فيها حياة البؤس والفقر المنتشر آنذاك في انكلترا وقد عنون هذه «الرسائل» باسم المواطن العالمى ونشرها متسلسلة فى احدى المجلات الانكليزية . . وتحتل هذه المقالات مكان الصدارة في الادب الانكليزى ، لما تمتاز به من صدق في التصوير وروعة في الاسلوب والسخرية اللاذعة !! .

* اشهر مؤلفاته كوميدية (هزلية) بعنوان «تتمسكن لتتمكن» وهى لم تزل تمثل على اكبر مسارح ايرلندا وطن المؤلف ، وقطعة شعرية جميلة باسم «القرية المهجورة» وقصة واحدة خالدة في الادب الانكليزى وهى «قس واكفيلد» التى بين يدى القارىء الآن

* توفى في الرابع عشر من ابريل سنة ١٧٧٤ ، ودفن في «مقبرة الهيكل» الخاصة بالعظماء من رجال انكلترا ، حيث نقش على قبره العبارة التالية، من مرثية الدكتور جونسون له :

«لنتناس نقاصه ، فقد كان بالرغم منها رجلا عظيما» !

(المعرب)

كنت ابدا ودائما من الذين يذهبون الى ان الرجل المتزوج، الشريف النفس القائم على ادارة شؤون عائلة كبيرة العدد ، يخدم قضية سكان البلاد من حيث العدد ، اكثر من العزب ، الذى لا هم له سوى التحدث عن هذا العدد من السكان او ذاك ، لان العائلات الكبيرة تزيد في مجموع السكان ، فى حين ان مجرد التحدث عنهم لا يغنى فتيلا ..

وبناء على « مذهبى » هذا ، لم تمض سنة واحدة على سيامتى قسا ، حتى اخذت افكر جديا ، بمسالة زواجى ... فاخترت شريكة حياتى كما اختارت هى ، ثوب عرسها ! لا يجاذب جمالها الجسدى ، بل يجاذب تلك المزايا ، الروحية الحميدة التى كانت تتحلى بها ابدا !! فقد كانت امرأة مثقفة ، على جانب كبير من الجمال : جمال الخلق وسمو التهذيب علاوة على مهارتها في فن الطبخ الذى لم يتفوق به عليها ، سوى العدد القليل من اترابها !

لقد احببنا بعضا حبا جما خالصا ، نما وتزايد مع الايام وتعاقب الاعوام. والامر الذى لا مراء فيه ، هو اننا لم نستسلم يوما للغضب على احد من الناس ، مهما كانت الدوافع اليه شديدة ... فقد كنا نسكن بيتا ظريفا ... يقوم على موقع جميل فى الريف ... وقد عشنا ـ بحكم هذا الوسط ـ حياة بسيطة لذيذة .. فقد كان العام يمر ، مثقلا بتسليات ممتعة بريئة حينا ، وبزيارة البعض من جيراننا الاغنياء ، حينا آخر .. ـ وبالترفية عن نفوس الفقراء منهم ، احيانا .. لم يكن ثمه « ثورة » نخشاها .. ومع اننا كنا ـ عادة ـ نسأم حياة المسرات والافراح ، وكانت نفوسنا تكره كثرة المباهج والملذات ، فقد كانت اتعابنا ـ غالبا ـ من النوع الذى يمكن ان تزيله ليلة هادئة نقضيها في نوم هادىء ساكن ، حالم مطمئن ...

وحيث ان منزلنا كان قريبا جدا من الطريق العام ، فقد كان المسافر يعرج عليه ويتذوق النبيذ الذى كنا نصنعه في بيتنا ، والذى اكسبنا شهرة واسعة جدا ! والغريب في الامر ، أننى لم اسمع انسانا واحدا ، استطاع ان يقول فيه سوء ! وكان اصدقائنا ، في ذلك الحين ، يستذكرون صداقتهم لنا ، وكان اقاربنا ـ على الرغم من الشقة الواسعة التى كانت تفصلنا عنهم ـ يبممون وجوههم شطر بيتنا لزيارتنا ، الا ان بعض الذين يدعون قرابتنا ، لم تكن زياراتهم لنا لتضيف الى شرفنا شرفا عظيما ، لان كثيرين

منهم كانوا ، اما عميانا او مقعدين ، او ثقيلي الظل مزعجين .. وودت كثيرا التخلص منهم ، لكن زوجتي كانت تلح علي وتسرف في الحاحها في ان اجلسهم على مائدة واحدة : تجمعني واياهم باعتبارهم اقاربي من لحم واحد ودم واحد !

لم يكن لنا اصدقاء كثر ، لكنهم كانوا - على قلتهم - سعداء بيننا ، وما اقرب هذا القول المأثور ، انطباقا على الحياة : «كلما كان الضيف فقيرا معوزا ، كانت ضيافته ادعى الى الرضى والارتياح» وكما يتفرس المرء باعجاب في لون الزهرة الخلاب او في الوان الفراشة وهي تمتص الرحيق من انوار الزهر ، هكذا كنت بفطرتي : اشد الناس اعجابا بالوجوه البشريه الباسمة ، السعيدة ، المستبشرة .

كنا هكذا سنين عديدة وحياتنا على احسن ما تكون سعادة وهناء .. ما خلا بعض الفترات التي كان «القدر» يكدر علينا صفوها ، لكي يزيد في قيمة فضله وكرمه ! وكثيرا ما تسلل تلاميذ المدارس - في غدوهم ورواحهم الى حديقتنا والتقطوا ما شاؤوا وما طاب لهم ولذ من التفاح وغير التفاح من ثمار .... وما اكثر ما اتخذت الهررة طريقها الى المطبخ ولعقت ما طاب لها من الحليب ... اما السيد صاحب الاطيان والاملاك المجاورة ، فقد كان يستسلم لنوم عميق في الوقت الذي كنت اصل فيه الى اجمل مقاطع الموعظة التي كنت القيها ، صباح كل احد في الكنيسة ! ثم ان زوجته لم تكن لترد التحية اللطيفة التي كانت زوجتي تحييها بها في طريقها الى بيت الله ، بالتحية اللائقة ، ولكن ما مر طويل وقت ، حتى افقنا من صدمة هذا القلق الفكري ، الناتج عن مثل هذه الحوادث .. ثم لم تمض ثلاث او اربعة ايام بعد حادث شبيه بذلك ، حتى كنا نتسائل ، مستغربين ، استيائنا الشديد منه ..

لم ينشأ اولادي على التنعم والبذخ وقد شبوا جميعا ، حسني المنظر ، اصحاء الجسم ، فكان الابناء جريئين مقدامين ، ممتلئين حيوية ونشاطا ، وكانت الابنتان مثال الجمال والنضارة وكلما كنت اقف في وسط افراد عائلتي الصغيرة - التي ستكون عونا لي في سني كهولتي وانحطاطي - لا اتمالك نفسي من تذكر قصة «الكونت ابنسبرغ» الشهيرة ..

اما القصة ، فخلاصتها ، انه في اثناء جولة الملك هنري الثاني في المانيا ، جاءه بعض علية القوم بكنوز هم وهداياهم الثمينة وقدموها له بوصفه حاكمهم ... اما الكونت ابنسبرغ فقد احضر اولاده ، وكان عددهم اثنين وثلاثين ومنحهم جميعا لمولاه كاثمن ما يمكن ان يقدم للملك ... هذا واني

وان كنت لا املك سوى ستة اولاد ، فانى ارى انهم اثمن هدية يمكن ان اقدمها لخدمة وطنى المحبوب ، الذى اعتبره ـ بحق ـ مدينا لى !!

كان اسم البكر من اولادى : جورج كاسم عمه ، الذى ترك لنا مبلغ عشرة آلاف جنيه اما ولدنا الثانى ، فكان ابنة : وكنت قد صممت ان اطلق عليها اسم عمتها ( جريسل ) ، ولكن زوجتى أبت الا ان تسميها (اوليفيا) نقلا عن اسطورة طالعتها اثناء الحمل ... ولم تمض سنة واحدة على ولادة اوليفيا ، حتى ولدت زوجتى ابنة اخرى ، حينئذ عقدت العزم على ان اسميها جريسل ... لكن احد الاغنياء من انسبائنا اقترح علينا تسميتها ( صوفيا ) وهكذا اصبح لنا في البيت اسمان ، مقرونين بكثير من الزخرف والبهرجة . ويلى صوفيا ابننا موسى ، ثم بعد ردح من الزمن طويل ، دام اثنى عشر سنة ، ولد لنا ابنان اخرين ...

عبثا احاول تكران ابتهاجى وفرحى باولادى الصغار المحيطين بى احاطة السوار بالمعصم . اما زوجتى فقد زهاها الكبر واظهرت من العجب والفرح باولادها ما فاق فرحى بهم وعجبى ...

فلما كان بعض الزوار يبد اعجابه بهم ، بقوله ، مثلا ، « حقا ايتها السيدة برمروز ، ان اولادك هم خير واجمل ما انجبت الامهات فى بلدنا . » تجيبه ، وقد اخذها العجب وملاء نفسها الغرور ، « اجل ، ايها الجار الكريم ، ان السماء قد اسبغت عليهم من الجمال والفتنة ما يكفينى فخرا بهم واعتزازا ، وارجو ان ينشأوا ايضا اولادا صالحين . فالجميل من يصنع الجميل .. » ثم تلفت الى ابنتيها : اوليفيا وصوفيا ، وتأمرهما بدفع رأسيهما ، فتظهران جميلتان ، فتانتان حقا ...

انى اعتبر مجرد مظهر اولادى الخارجى ، امرا تافها . ولم يكن هذا المظهر الخارجى عينه ، موضوع حديث الناس في الريف ، لاسدلت عليه ستارا كثيفا من النسيان ، ولما عدت قط الى استذكاره ...

كانت اوليفيا في ربيعها الثامن عشر ، تتمتع بقسط وافر من الجمال لا يقل عن جمال احدى آلهات الاغريق القدماء فتنة وسحرا ، وكان وجهها مملوءا حيوية واقتدار . اما صوفيا ، فلم تبد جميلة جذابة للناظرين ، في بادىء الامر ، لكنها كانت تزداد فتنة وسحرا كلما تأمل الانسان فيها وزادت الفتة لها !!

وكما كان وجهيهما مختلفين ، كانتا ايضا مختلفتين في المزاج ! فقد كانت اوليفيا

تمنى النفس باستئثار اكبر عدد ممكن من المحبين المعجبين بها ، لكن صوفيا فلم تكن ترغب الا في ان تأمن على حبيب واحد فقط ٠٠٠٠ كانت اوليفيا تسليني وتكرم وفادتي بما وهبت من ذكاء العقل وصفاء الفكر ، اوقات الفرح والهدوء ٠ اما صوفيا فكانت تسليني باحساسها المرهف ومشاعرها اللطيفة اوقات الجد ٠٠٠

تخرج ابني البكر ( جورج ) من جامعة ، أكسفورد ، لانى كنت اريد له ان يمتهن عملا حرا يتطلب علما نبيلا ، فيكون طبيبا ام قسا او محاميا اما ابني الثاني ( موسى ) الذي كنت اريد له عملا تجاريا ، فقد نما وترعرع على شتى ضروب التربية في البيت ٠

— ٢ —

كانت زوجتي تدير شئون البيت المالية ، اما تربية الاولاد التثقيفية والدينية ، فكانت كلها تحت عهدتي انا وادراتي ، وان المبلغ الذي كنت اتقاضاه ، سنويا ، مقابل خدمتي في الكنيسة ، لم يتعد الخمسة والثلاثين جنيها ، وكنت اوزعها على الفقراء من رجال الكهنوت : قانعا ، راضيا بثروة تقدر ببضعة الاف من الجنيهات ٠٠٠ وكان سروري الوجداني عظيما ، كقس : يعمل ويخدم بدون راتب ٠

كنت اميل دوما ، الى الوقوف على احوال جميع الناس المقيمين منهم على نشدان عيشة التقى والفضيلة ونصح العازبين منهم ان يتزوجوا بنساء صالحات فاضلات ٠٠٠ لذلك ، لم تمض بضع سنوات على اقامتي في « واكفيلد » حتى صار الجميع يلهجون قائلين : « ان واكفيلد بحاجة الى امور ثلاث : قس عظيم ، وعزب ينشد زوجة وفنادق ليؤمها شاربي الخمر »٠

كان « الزواج » احد المواضيع الرئيسية التي احتلت مكان الصدارة في احاديثي الخاصة والعامة ٠ وقد القيت عدة مواعظ في هذا الموضوع مبينا بالحجة التي ليس بعدها حجة ، والبرهان الذي ليس بعده برهان ، اسباب سعادة الحياة الزوجية ٠ وكان بعد ذلك ، ثمة اعتقاد شخصي ، كنت ادعمه دعما شديدا : الا وهو « عدم شرعية زواج كاهن الكنيسة الانكليكانية للمرة الثانية بعد وفاة زوجته الاولى »

ولعل من الاسباب التي شجعت ابني على التعلق بحب ابنة السيد « ويلموت » ( احد رجال الدين ) فور تخرجه من الكلية والرغبة في الاقتران

بها ، ما كان يسمعه منى ، مـــرارا وتكرارا ، بشأن الزواج . وكان السيد ويلموت يشغل منصبا رفيعـــا في الكنيسة ، وباستطاعته ان يمنح ابنته مهرا كبيرا ، لكن مهرها هذا ، لم يكن وحده ليشفع بها لدينا ... فقد كانت في نظر الجميع فتاة على جانب كبير من جمال الخلق ، لا ينضب لصحتها وشبابها وحيويتها معين ! ناهيك عن براءتها وصفاء بشرتها ونضارة وجهها التى تأخذ بمجامع القلوب وتسلـــب العقول ، حتى ولو كان الناظر اليهـا كهلا هرما ...

كان السيد ويلمـــوت يعلم ، ان باستطاعتى ، انا ايضا ، ان امنـــح ابنى هبة من المال لا بأس بها ، لذلك ، لم يمانعهما هذا الزواج ، من ثـــم ، عاشت العائلتان معا ، تربطهما رابطة الصداقة ، التى تسبق ، عادة ، اتحاد عائلتين عن طريق المصاهرة ، واذكنت مقتنعا ، عن معرفة واختبار ، ان ايام الخطبة والصبابة ، التى تسبق الزواج هى اهناء واسعد ايام الحياة علـــى الاطلاق ، فقد عملت جهدى على اطالة مدتها بكل رضى وسرور ... هذا ، وان اسباب التسلية واللهو التى كانت تجمع الخطيبين معا ، كانت تزيد في شغف احدهما بالاخر ...

كنا احيانا ، نستيقظ في الصبـاح الباكر ، على نغمات الموسيقى العذبة ، واحيانا اخرى ، كنا نمتطى الخيـل بقصد القيام برحلة صيد في غابـــة من الغابات المجاورة ، اما في الفتـرة الواقعة بين وجبتى الفطور والغـــداء فقد كانت تصرفها السيدات في المطالعة وارتداء الثياب ....

كانت زوجتى تتسلم قيادة الحديث اثناء تناول طعام الغداء ، مصرة ، مع ذلك ، على خدمتنا على المائدة .... وكانت تقدم لنا الوان الطعام والشراب بنفسها ، وكانت في الوقت نفســـه تشرح لنا اصل كل لون وكيفيـــة طبخه واصل المواد المركب منها . وبعد الغداء كانت ابنتينا تسلياننا بحفلة موسيقية تحت اشراف مدرس الموسيقى . فكانتا تارة تغنيان واخرى تعزفـان على الالات الموسيقية .. اما ما تبقى من النهار فكنا نصرفه بالتنزه خارجا او بتناول الشاى او في حفلة راقصـة ريفية او بالقيام ببعض الالعاب البيتية للترفية والتسلية ...

ما لعبت الورق قط ! لانى كنـــت امقت المقامرة وكل لعب من اجل المال ان الاثنين والخمسين ورقة التى يتألف منها ورق اللعب ، قد دمرت اكثر من اثنين وخمسين الف بيت ، وقضـــت على مثل هذا العدد من الثروات قضاء

مبرما ... وعلى الرغم من انها مجرد قطع مصنوعة من الورق ، فانها دعيت ـ بحق ـ « قرميد الشيطان »!

ودامت الحال بنا هكذا بضعة شهور ، حتى اقترح احدنا تعيين يوم يجرى فيه عقد قران العروسين الذين ابديا رغبة صادقة في اتمامه . ولاتسل عن شدة اهتمام زوجتي وانهماكها بالامر اثناء الاستعدادات لهذا الحدث الجلل ! اما انا فكنت آنئذ ، منصرفا انصرافا كليا الى اتمام كتاب آمل ان يتم طبعه ، فاخرجه الى العالم ، حاملا دفاعا مجيدا عن الشرع القائل : « ان الكاهن في الكنيسة الانكليكانية يجب ان لا يتخذ لنفسه زوجة ثانية ، بعد وفاة زوجته الاولى . » واذ كنت اعتبر كتابي هذا، اروع ما دبجت يراعة كاتب في الموضوع اياه ، فانى لم اتردد في عرضه على السيد ويلموت ، بكل مافي نفسي من اعتزاز وفخار ! ولم اكن اشك قط ، في ان الكتاب سيصادف قبولا حسنا ورضى تام من السيد ويلموت ، لكنني بعد ذلك اكتشفت انه متمسك بعقيدة مغايرة كل المغايرة لعقيدتي ، شديد التمسك لسبب واحد ، واستطيع ان اقول انه كان في ذلك الحين ، يراود المرأة الرابعة ويتودد اليها ويطارحها الغرام ، وقد قام بيني وبينه جدال عنيف ضار، حول الموضوع ـ وهذا ما كنت اتوقعه فعلا ـ اعقبه مشاجرة كادت تقطع رباط المصاهرة الذي كان سيربط العائلتين بعضهما الى بعض ، ولكن ، حدث قبل اليوم المعين لاجراء عقد القران فيه بيوم واحد ان تم الاتفاق بيني وبينه على العودة الى البحث في الموضوع بحثا مسهبا ، مستفيضا، وديا خالصا ...

لقد دار البحث فعلا ، هذه المرة وبروح اكثر مودة واخلاصا من قبل الطرفين، وكانت حجة السيد ويلموت ان كبار الكتاب والفقهاء واولى الامر في الكنيسة ، هم ابعد ما يكونوا عن الاخذ بهذه العقيدة او تاييدها ! اما انا، فقد كنت اشد ما اكون تمسكا بعقيدتي هذه ، ثم رد على ثانية كالمرة الاولى ولم يكن يتلقى مني الا الحجة بعد الحجة والبرهان تلو البرهان، على صحة هذه العقيدة ... وفي اللحظة التي وصل فيها الجدال الى اعلى درجة من الحرارة ، جاء احد انسبائي ، واستدعاني الى الخارج ، وكانت ترتسم على وجهه كآبة محزنة ، وطلب الى ، ناصحا ، ان اضع حدا للمناقشة ، ولو الى حين ، حتى تتم مراسم الزواج

فصرخت في وجهه : « لماذا؟ أأنصرف عن قضية حق لي في وقت كاد خصمي يلقي فيه سلاحه ويسلم بعقيدتي ؟! أحر بك ان تطلب مني التنازل عن

ثروتي بدل ان « تنصحني » بالعدول عن مثل هذا الجدال . » فقال ، وقد بدا وجهه اكثر كآبة من ذي قبل :« الان يؤسفني ان اخبرك ، ان ثروتك قد آلت الى العدم ... فالتاجر اللندني الذي استودعته ثروتك ، قد فلس ، بعد ان خسر كل ماله ، وما لك ايضا ... لم اكن لارض لك ولعائلتك هذه المصيبة ولا ان تسمعوا بها قبل عقد قران ابنك ... اما الان ، وقد وقع ما لم يكن في الحسبان ، فلعلها تخفف من حدة الجدال القائم بينك وبين السيد ويلموت ، واظنك ستكتم الخبر عن الجميع ، حتى يرى ابنك عروسه وثروتها في مامن بين يديه .»

فاجبت الصديق : « ان كان ما قلته لي حقا ، وان قدر لي ان امسي فقيرا ، استعطي في الازقة ، فلن يجعلني هذا او ذاك ، لصا ويحملني على نكران مبادئي !.. وسأذهب ، حالا ، واطلع الجماعة على الحالة التي صرت اليها . اما بشأن الجدال ، فلن اتواني في استرداد « النقط » التي سلمت بها لصالح السيد ويلموت ( العجوز ) اثناء المناقشة »

عبثا استطيع وصف مختلف التأثيرات والانفعالات التي بدت على وجوه افراد العائلتين ـ عائلتي وعائلة السيد ويلموت ـ عندما اطلعتهم على خبر المصيبة التي حلت بنا ! ولكن اين هذه التأثيرات والانفعالات من تلك التي بدت على الحبيبين والتي بدا عليهما انهما سيكابدا نتائجها مكرهين !

اما ما نجم عن المناقشة والجدال ، فهو ان السيد ويلموث ، قد مال الان الى اتخاذ موقف الخصم العنيد ضدنا بعد ان كان قد مال ، قبلا ، الى انهاء المناقشة والاعتراف بسلام مبادئي ! ولكن حين سمع بالنكبة التي تنكبنا بها ، صمم على اتخاذ هذا الموقف منا .... ان البرج المائل ، الى جانب واحد لا يحتاج الى اكثر من لمسة خفيفة من يد القدر لتصبح اعاليه اسافلة !

— ٣ —

لم يبق امام عائلتي سوى أمل واحد ، عللوا انفسهم به ، الى حين ، وهو ان لا يكون لنباء النكبة التي اصابتنا ، نصيب من الواقع .... ولكن سرعان ما جاءني خطاب من محامي في لندن ، يسرد لي فيه حقيقة الامر ويقول ان كل ما عملته بخصوص ثروتي لا شك فيه !

ان ضياع ثروتي ، امر تافه بالنسبة لي كفرد ، وما احسست به من الجزع والاضطراب ، لم يكن الا من اجل افراد عائلتي ... اذ تحتم عليهم ان يدربوا انفسهم على ان يعيشوا كما يعيش سائر الفقراء المعوزين الا انه لم يسبق لهم ان عرفوا شيئا عن العوز والفاقة ولا كابدوا الفقر وكانوا به قانعين !

لم اسع الى كبح جماح احزانهم والامهم قبل انقضاء عشرة او خمسة عشر يوما ... لان الحزن اذا قمع سريعا دام طويلا في الذهن وقرارة النفس وكنت آنئذ ، اشغل فكري في تدبير عمل جديد ، اضمن به للعائلة المنكوبة ، العيش في مستقبل الايام ... واخيرا عرض علي القيام بشغل احد المراكز القصية ـ كقس ـ براتب سنوي لا يتجاوز الخمسة عشر جنيها فقبلت العرض ، مبتهجا ، وعقدت العزم على ادارة مزراعة صغيرة ـ بجانب عملي هذا ـ لزيادة دخلي ....

وقد تحول جل اهتمامي ، بعدئذ ، الى ان اجمع ما تبقى من حطام ثروتي ، فبعد ان دفعت كافة الديون ـ اي مبلغ اربعة عشر الفا من الجنيهات ـ لم يتبق لنا منها سوى اربعماية جنيها ، ثم عملت جهدي في خفض كبرياء عائلتي الى مستوى يتلائم مع ظروفنا الجديدة ، ذلك لان اشقى الناس من كان فقيرا معوزا ، وكان في الوقت نفسه متكبرا متشمخرا !...

جمعت اولادي ، ذات يوم ، وقلت لهم : تعلمون ، ولا شك ، يا احبائي انه لم يكن باستطاعتنا ، بما اوتينا من فطنة وحصافة رأي ، ان نحول دون وقوع مصيبتنا الاخيرة .. وان ضياع ثروتي لم يكن من جراء طيشي وغفلتي ، بل من جراء جهل التاجر وافتقاره الى الحكمة والاستقامة ومع هذا كله ، ارى ان الفطنة والتعقل يستطيعان ان يخففا كثيرا من وقع خسارتنا ... نحن فقراء ، فينبغي ، اذا ، ان نكون حكماء ، فطنين لنستطيع ان نوفق بين انفسنا والحالة الوضيعة التي صرنا اليها .. قد يتكبر الاغنياء ويترفعون ، لكن الفقراء يجب ان يكونوا متواضعين .. ما اكثر الاغنياء التعساء ، رغم كل ما نرى من مظاهر الابهة التي تحف بهم ! .. فلننصرف اذا ، عن ماضي زهونا وفخارنا ، ولنسع جهدنا لنبدأ من جديد حياة هنيئة ، سعيدة ، مطمئنة ، تتمشى والحالة التي آلت الينا ... يعيش الفقراء سعداء في حياتهم ، فلماذا لا نعيش ، نحن ، سعداء مثلهم ؟! فلنكف من هذه اللحظة عن ادعائنا الغنى والثراء .. ونستطيع بما تبقى لنا من المال ـ ان نحيا حياة

سعيدة ممتعة واذا عدمنا الثـــروة المادية ، فلننشد ما هو اعظم من الغنى والمال ! الا وهو ـ القناعه !»

حيث ان ابنى جورج قد قطع شوطا واسعا في مضمار العلم والمعرفة فقـــد عزمت على ارساله الى لندن حيـــث يمكنه ان يربح من المال ما يكفى حاجته واعانتنا ايضا ، الا ان فراق الاصدقاء والاقارب يعتبر من ارذل نتائج الفقـر وأدعاها الى الحزن والالم !.. فقد جاء اليوم الذى وقفنا فيه نودع ابننـــا للمرة الاولى فى حياتنا ! .. ودع ابننا البكر امه وسائر افراد العائلـــة وداعا مؤثرا ، امتزجت فيه دموعهـــم الحارة بقبلاتهم الملتهبة .. ثم ، التفت وطلب الى ان أصلى له وابارکـــه .. فباركته من اعماق قلبى ، مضيفا الى بركتى خمسة جنيهات كانت كـل ما استطعت تزويده بها . ثم قلـــت له : «بما انك ذاهب ، يا بنـــى ، الى لندن ، خذ هذا الكتاب المقدس معك ، فيكون عزائك وسلواك في طريـــق سفرك : واذكر هذه الجملة فى الكتاب «ايضا كنت فتى وقـــد شخت ولـم ار صديقا تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس خبزا (١) ..» (مزامير ٣٧ ـ ٢٥) ليكن هذا الكتاب عزائك ، يا بنى ، وسلواك في سفرتك ، ومهما كان حظك فـــى الحياة ، عد الينا لنراك ولو مرة واحدة في السنة .. وحافظ على طيبة قلبك دائما ، وكن شجاعا في الحياة والله معك والى اللقاء !»

عهدت ابنى فتى ، كريم النفس شريفا ، مقداما ، فلم اخشى ان اقذف به الى مسرح الحياة ، واثقا مـــن ان الدور الذى سيلعبه عظيما جـــدا ، سواء اخرج منه رافع الرأس منتصرا . او خافض الجناح مقهورا !

ان فراق ابنى قد مهد الطريق الى رحيلنا نحن ، اذ لم ينقضى ســـوى بضعة ايام على سفره ، حتى شددنـا رحلنا ويممنا وجهوهنا شطر بيتنـــا الجديد ، وبعد مضى يوم واحد علـــى سيرنا ، القينا رحلنا في مكان يبعـد عن مسكننا الجديد بنحو ثلاثين ميلا .

مكثنا ليلتنا في نزل وضيع في قرية قائمة على جانب الطريق العام ، فلما دلنا صاحب الفندق على غرفتنا سألته ان يجلس معنا قليلا بعـــد العشاء فأجابنى .. ثم انه كان يعـــرف جميع الاماكن المجاورة التى كنـــا وقتذاك ، ننتقل اليها ، وكان يعرف ايضا ، السيد «ثور نهـــل» صاحب الاملاك والاطيان الذى سأحتل قسما من املاكه ، والمقيم في نقطة لا تبعـد

١ ـ نقلنا ترجمة هذه الآية عـــن الكتاب المقدس العربى .

عن مركز عملي سوى بضعة اميال . وقد وصف لنا مدير الفندق ، صاحب تلك الاملاك ، اذ قال ، انه لا يعنى بشيء من امور الدنيا قدر عنايته باسبا ب اللهو والمجون ! وقد اشتهر، بصورة خاصة ، بتودده الى السيدات وغرامه بهن ، وقد أصاب «نجاحا باهرا» في اكتساب قلوبهن وعواطفهن، لكنه لم يكن قط مخلصا لهن !

ان ما سمعته عن السيد ثورنهل آلمنى كثيرا وحز في نفسى ، بخلاف ابنتى ، فقد اشرقت اسارير وجهيهما، املا منهما في خوض نضال ، تخرجان منه ظافرتين ، منتصرتين! اما زوجتى، فلم تكن اقل منهما انشراحا وثقة بافتتانهما وحسن تأثيرهما !.

واذ كانت عقولنا منشغلة بهذه الافكار والخواطر ، دخلت علينا زوجة صاحب الفندق ، تقول لزوجها ان السيد الغريب الذى امضى يومين فى فندقهما ، لا يملك حتى بنسا واحدا ، وانه عاجز عن دفع الحساب لهما . فاجابها زوجها قائلا : «ان ما تقولينه مستحيل ، لانى رأيت الرجل نفسه ، امس ينقد ثلاث جنيهات لشرطى لاخلاء سبيل جندى شيخ فقير وانقاذه من عقاب الجلد بسبب سرقة كلب !» فردت زوجته قائلة : ان ما قالته هو الحق ... وان الرجل يستعد لمغادرة الفندق ، ويقسم انه سيسترد ماله بطريقة ما ! فطلبت الى صاحب الفندق استدعاء الرجل الغريب، لانه لا بد ان يكون على جانب كبير من نبل العاطفه وكرم الاخلاق ، لما لمسناه من حبرة مع الجندى الشيخ والشرطى ، فاجابنى الى طلبى ، اذ ما غاب عنا برهة قصيرة حتى عاد الينا ، يصحبه شاب في مقتبل الثلاثين من العمر ، جميل الهندام ، يرتدى ثيابا تنم عن طيبة أصله وحسن مركزه !.. بدا الرجل فارع القد ، جميل الشكل ، اما وجهه ، فقد علته خيوط من التفكير والتأمل !..

لما ترك صاحب الفندق غرفتنا ، لم اتمالك نفسى من الاعراب للشاب الغريب عن اسفى العميق على رجل أحيط بظروف محزنة، قاهرة ، كهذه، وعرضت عليه ، مساعدتى واخذ كل ما يلزمه من المال لدفع ما عليه من دين لصاحب الفندق ... فاجاب الرجل الغريب ، قائلا : « انى اتناول منك المبلغ الذى تتكرم به على ، من كل قلبى يا سيدى ، وانه يسرنى ، ان عدم عنايتى بتوزيع مالى وتبذيرى، قد اظهرا لى ، الان ، حقيقة وجود رجال امثالك ، هم اكثر الناس احسانا ومروءة . لذلك ، التمس منك ان تذكر لى اسم وعنوان المحسن الى لكى يتسنى لى اعادة ماله مع الشكر، باسرع وقت ممكن ، فأرجوك يا سيدى ان تقول لى ما اسمك.»

عرفته باسمي واطلعته على المصيبة التي حلت بنا مؤخرا . ثم ذكرت له المكان الجديد الذي انا بسبيل الذهاب اليه ، فهتف : «لقد خدمني الحظ ، الان ، اكثر مما كنت آمل ! لاني انا ايضا متجه الاتجاه عينه !.. منذ يومين والفيضانات تمنعني من متابعة سفري ... ولكني امل ان نتمكن من عبور النهر غدا ، ان شاء الله !»

اعربت له عن ابتهاجي بمرافقته ، وطلبت اليه الاشتراك معنا في تناول طعام العشاء ، فاجابني الى طلبي بعد ان اشتركت فيه زوجتي وابنتي ... وسرعان ما بدا لنا حديث الرجل الغريب هذا ، ممتعا ، مهذبا : الامر الذي حملني على طلب المزيد منه . لكننا كنا مضطرين الى ان نأوي الى فراشنا باكرا ، استعدادا لمجابهة اتعاب ومشقات السفر في اليوم التالي .

وفي صباح اليوم التالي ، ركبنا الخيل واستأنفنا السفر معا ، باستثناء مرافقنا الجديد السيد (برتشل) اذ كان يمشي على «التروتوار» المحاذي للطريق العام وحيث ان شدة الفيضانات لم تكن قد خفت بعد ، لم نر بدا من استئجار دليل ، يسير امامنا في الطليعة ، اما انا والسيد برتشل ، فقد سرنا في المؤخرة ، وخففنا كثيرا من اثقال السفر ووعثاء الطريق ، باطراق حديث طريف دار بيني وبين السيد برتشل .

شيء واحد ادهشني ! فالقارىء يذكر ولا بد ، ان السيد برتشل كان قد استدان مني مبلغا من المال .. والمرء اذا كان مدينا ، فانه يحترم دائنه ـ عادة ـ ويكبره ، بل يكون امامه اكثر تواضعا في مثل هذه الحال ... لكن الامر كان على العكس مع السيد برتشل ، وهذا ما اثار دهشتي وعجبي ، فكان يبدي آراؤه بكثير من الثقة والشدة ـ بل بلهجة الآمر ، في بعض الاحيان ـ كأنه «هو» الدائن ، فعلا ، وانا المديون !! وفي اثناء سيرنا كان السيد برتشل يشير ، الفينة بعد الفينة ـ الى منازل مختلفة ، كبيرة ، فخمة ، ويذكر لي اسماء بعض مالكيها ، ثم اشار مرة الى منزل ظريف جدا ، وقال : «انظر الى هذا البيت الجميل ، فانه يخص السيد ثورنهل ، وهو شاب في مقتبل العمر ، يتمتع بثروة لا بأس بها ، لكنه مع ذلك ، يعتمد كل الاعتماد على احسان عمه السيد وليام ثورنهل : والسر وليام يحتفظ لنفسه باليسير من رزقه ، فهو رجل قنوع ، ويسمح لابن اخيه بالتمتع بباقي ثروته ، وارزاقه ، وهو ـ اي (السر وليام) يقيم الآن في لندن .

فهتفت متسائلا : «هل الشاب ، صاحب هذه الاراضي والاملاك ، ابن

اخى الرجل الذى اشتهر في كـــل مكان بفضائله ومكرماته وميزاتـه ؟! لقد بلغنى ان السر ثورنهل هو اكـرم من عرف بين الناس واسبقهم الى عمل الخير والبر والمعروف ، واكثرهـــم احسانا في عموم انحاء المملكة !» فاجاب السيد برتشل قائلا : «ان ما قلتـه . او بالاحرى ، ما بلغك عنه ، ليس من المبالغة في شيء ، فقد اكثر في عمـل الخير والاحسا نفى سنى حداثتـه الى حد بعيد . وكان قلبه هدفا لسهام اخف الالآم ، سواء اكانت حقيقـة أم مصطنعة ، وكانت حياته كثـيرة جدا بالنسبة لثروته ، فلمـا نقصت ثروته وتضائلت ايقن ان اولئـك «الاصدقاء» الذين تألبوا حوله بجاذب من كرمه واحسانه ، لم يكونوا اهـلا للاعتبار ولا بالاحترام جديريـن ... فان الانسان، ان لم يهب قلبه، لا ماله، للاخرين ، لا يستطيع اكتساب قلوبهم ... ولقد اكتشفت ايضا ، ان ... ان ... عفوا ، لقد نسيت ما كنـت سأقوله ... وبالاختصار ، فقد رسم السر ثورنهل ، خطة جديـدة يسترد بها ثروته المفقودة ، فسافر ، منـذ وقت قريب على قدميه ، بلـدان اوروبا جميعها ـ تقريبـا ـ دون ان يصرف بنسا واحدا ، حتى جمـع ثروة لا تضاهيها ثروته السابقـة في ضخامتها ، مع انه لم يكن ، وقتئذ، قد تجاوز الثلاثين من عمره !

«وقد تعلم ان يكون معتدلا في معيشته ... فلا يستجيب لدواعى الضيـق والالم والعسر ، لا كثيرا جدا ولا قليلا جدا ! واصبحت هباته معتدلة ايضا ، فلا هى بالكبيرة جدا ـ كما كانت فـى السابق ـ ولا بالصغيرة !...»

كنت متنبها بكل جوارحـى ، الى حديث السيد برتشل ، الى درجـة لم اعد معها انظر الى الطريق امامـى ، اثناء مسيرنا ! حتى ايقظتنا فجـأة صرخات استغاثة صادرة من عائلتـى نفسها ، واذ التفت الى ناحية الصرخة، لمحت ابنتى الصغرى تصارع تيـار النهر الجارف ! ـ اذ كانت قـد سقطت من على ظهر الحصان ، فكـاد يصرعها ، اذ غاصت تحت امواجـه مرتين !

لم يكن باستطاعتى الترجل عـن الحصان للعمل على انقاذهـا ، اذ احسست بجمود وبرود في مشاعـرى وعواطفى الى درجة لم اعد عندهـا قادرا على القيام باية محاولة لانقاذها، وقد ادرك السيد برتشل الخطر المحيق بابنتى ، فرمى بنفسه الى النهر يصارع التيار والتيار يصارعه ، حتى انقذها وحملها بين ذراعيه الى الضفة المقابلـة .. وهكذا نجت بعد ان كادت تلفـظ انفاسها وهى في الماء !

اما بقية افراد العائلة فقد عبروا النهر الى الضفة الثانية ، سالمين ، وهناك تيسر لنا ان نقدم شكرنا وشكر ابنتى الى السيد برتشل كما انها استمرت مستندة الى ذراع «منقذها» وهى تشكره ـ لا بلسانها فحسب ، بل بكل نظرة من نظراتها ! وفي عشية ذلك اليوم ، تناولنا الطعام جميعا ، في فندق اخر ، وبعد ان انتهينا من تناول العشاء نهض السيد برتشل واستأذننا بالانصراف اذ كان يستهدف مكانا اخر من الريف ...

اما نحن فتابعنا رحلتنا ، واذ كنا في الطريق ، نحو هدفنا ، صرحت لى زوجتى ، قائلة : ان اكبارها وتقديرها للسيد برتشل قد بلغا درجتهما القصوى ، وانه لو كان على شيء من النسب الشريف ويملك من المال ما يؤهله لمصاهرة عائلة كريمة الاصل ، نبيلة ، كعائلتنا ، لما ترددت لحظة في تلبية مثل هذا الطلب !.

عندئذ ، لم اتمالك نفسى من الابتسام من هذا الحديث المنطوى على كثير من الانفة والكبرياء ، ومع ذلك ، لم اكن جد مستاء من مثل هذا النوع من الغرور ، الذى يهدف الى جعلنا احسن حالا واهنأ بالا !

— ٤ —

لم يجاور مسكننا الجديد سوى عدد قليل من المزارعين الذين كانوا يحرثون ارضهم بانفسهم ، لانها كانت ملكا لهم ، وكانت فلاحتهم لها جيدة ، اذ كانت تدر عليهم كميات وافرة من المحصول .. وليسوا هم من الغنى الفاحش فى شيء ، ولا هم من الفقر المدقع في شيء .. وقلما زاروا المدن الكبيرة في حياتهم ... فهم يقطنون هذا الريف .. وهو يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من ضروريات الحياة ..

ولما بلغ سكان الاماكن المجاورة خبر قدومنا الى القرية ، خرجوا لاستقبالنا بالبستهم الفاخرة ، تتقدمهم جماعة من الموسيقيين ، وكانوا قد اعدوا وليمة فاخرة ، تكريما «لقسيسهم» الجديد ، الذى هو «انا» ! .. وكان الحديث الذى دار بيننا على مائدة الاكل ، بسيطا جدا ، ليس فيه شيء من التفكير العميق او الفطنة لانهم قوم بسطاء ، لم يتعلموا استعمال الجمل الرقيقة المؤثرة ، ولا التلاعب بمفردات اللغة على وسعها ، او بالالفاظ على مختلف الوانها واشكالها ... لكنهم كانت تضحكهم اتفه النكات واوهاها . فاستعيض الحديث عن المواضيع العلمية بالضحك والقهقهة !

قام بيتنا الجديد على سفح اكمة شديدة الانحدار تستره من الخلف غابة في منتهى الروعة والجمال ! وتنساب من امامه مياه النهر انسيابا جذابا! اما المزرعة ـ مزرعتي ـ فكانت مساحتها ما يقرب من عشرين فدانا من الارض ، اى نحو «٩٦٨٠٠» ياردة مربعة من اجود الاراضي واخصبها !

كان مسكننا الاول مؤلف من طابقين : الطابق العلوي يشتمل على غرف للنوم ، والطابق السفلي مؤلف من «صالون» ومطبخ وغرفتين اخريين تحتهما ... اما مسكننا الجديد . فكان يشتمل على طابق واحد ، وبالطبع ، ليس فيه سلالم للصعود والنزول عليها ، وكانت جدرانه مبيضة من الداخل بالجير ـ بحيث استرعى اهتمام ابنتاى ، فصممتا على تزيينها بلوحات من رسم ايديهما .. كان لنا في بيتنا القديم غرفة للاستقبال طالما جلسنا فيها بعد العشاء لنتجاذب اطراف الحديث ونستمع الى نغمات الموسيقى الشعبية، اما غرفة الاستقبال في مسكننا الجديد ، فقد استخدمت لغرضين اثنين في آن واحد ، للجلوس والطبخ وهذا ما جعلها اكثر دفئا ! .. مع ذلك، فقد جعلناها غاية فى النظافة والترتيب ! .. فكانت الاوانى والصحون غاية في الروعة ومرتبة ترتيبا جيدا فوق رفوف خشبية مثبته على الجدار ..

اما الكؤوس والقصع والقدور ، وباقى اوانى الطبخ ، فقد صفت على رفوف اخرى بشكل لا يقل ترتيبا وانتظاما ... وكان فى البيت الجديد ثلاث غرف اخرى : واحدة لى ولزوجتى وواحدة لابنتى وواحدة لباقى الاولاد. كانت ايامنا تمضى، في البيت الجديد، على النحو التالى :

كنا نهب من رقادنا كل صباح مع بزوغ الشمس ونجتمع في غرفة الجلوس محيين بعضنا بعضا ، تحية الصباح اللطيفة (مراعاة منى لاصول الآداب الاجتماعية الصالحة) . ثم نجثو على ركبنا للصلاة والدعاء الى الله عز وجل، شاكرينه على كثرة مراحمه وانعامه علينا بيوم جديد من حياتنا ... وبعد ذلك ، نذهب ـ انا وابنى ـ الى العمل بينما تنهمك زوجتى وابنتاى في اعداد طعام الفطور وكما كنا نبدأ عملنا مع بزوغ الشمس ، كنا نقف عن العمل عند غروبها !.. ثم نعود الى البيت، فيستقبلنا الاولاد بنظراتهم ووجوههم الباسمة ،والموقد بنارها المتأججة الدافئة !..

لم نكن لنخلو من الضيوف قط ، فطالما زارنا جارنا المزارع «فلامبورو» الكثير الكلام ، واطلعنا على كل ما كان يجرى حولنا .. ثم كان هناك، ايضا ، موسيقارا ضريرا ، يؤم بيتنا ، ليصيب شيئا من

الخمر البيتية التى تابعنا صنعهـا ، فدامت ـ بذلك ـ لنا معها الشهـرة التى اكتسبناها في الماضى لطيبتهـا وجودة صنعها !

كان يوم الاحد يوم التبرج والزينة، وكم عللت نفسى بما كنت القيه مـن المواعظ ضد الكبرياء وتشامخ النفس، ان ارى غرور ابنتى وتشامخهمـا الباطلين ، قد غلباهما على امرهما ٠٠ لكن الواقع كان على غير ما كنت آمل واشتهى فقد لازمهما الولع بالتبـرج والشغف بالملابس الفاخرة والقبعات الجميلة ، حتى ان زوجتى نفسهـا ، كانت اشد ما تكون كلفا وتعلقا بثوبها الحريرى الارجوانى ، لانـى سبقت وابديت اعجابى بها ، وهى في هـذا الثوب عينه !٠

كان تصرفهن في الاحـد الاول لوجودنا فى البيت الجديد ، شائنا ، ومخجلا لى حقا ، ففى الليلة السابقة ، كنت قد طلبت اليهن النهوض باكرا وارتداء ملابسهن استعدادا للذهاب الى الكنيسة ، لانى كنت احب دائما ان اكون فيها قبل كل انسان آخر ٠٠ فاطعن الامر ، ولكن عندما اجتمعنـا للذهاب معا الى الكنيسة ، بـدت زوجتى وابنتاى في ابهى الحلل وافخر الملابس ، وكانت علامات الزهـو والكبرياء بادية على وجوههن ، كما كن يفعلن سابقا ٠٠٠ فمن ضفر الشعر الى اظهار محاسن الوجه «المصطنعة» الى البسة حريرية يرفلن بها رفلا !٠٠ فلم يسعنى الا الابتسام ازاء هـذا الغرور الخادع ـ وبخاصة ذاك الـذى بدا جليا على زوجتى التى كنت آمل ان تكون اكثر رصانة وحكمة ـ فلم يسعنى ـ ساعتئذ ـ الا ان دعوت ابنى موسى وامرته بلهجة جادة قوية ، ان يحضر لنا عربة لتقلنا الى الكنيسة ، فذهلت الفتاتين ، واستغربتا طلبى هذا ، كانهما لم تصدقا آذانهمـا ! فكررت الطلب بصوت اكثر مهابـة وأوقع في النفس منه في المرة الاولى ٠ فالتفتت الى زوجتى وقالت : «اظنك تمزح ، يا عزيزى ، لسنا بحاجة الـى عربة تقلنا الى الكنيسة لاننا نستطيع ان نمشى اليها دونما تعب !»

فاجبتها قائلا : « انك لعلى خطأ ، يا صغيرتى ، اننا في حاجة ماسة الـى عربة ، لاننا اذا مشينا الى الكنيسة ونحن في هذه الالبسة الفاخرة وهـذه الزينة البارزة نصبح اضحوكة لاولاد الازقة ومثارا لهتفاتهم المستهجنـة ـ الماجنة !! »

فردت زوجتى قائلة ، وكانهـا تخاطب نفسها : «كنت اخال دائما ٠٠»

فقطعت عليها الكلام وقلـت : «يمكنكن ان تكن انيقات في ملبسكن حسبما تشتهين ، ولكن هذا الذى اراه ليس الاناقة والنظافة ، انما هـو

التبرج عينه ! ٠٠ ان هـذا الشعر المضفور وهذه الملابس وهذه الوجوه «المزخرفة» ستكون عاملا كبيرا على اثارة كوامن الحقد والكراهية فـي قلوب نساء الحى والجيران ! لا ، لا ، يا عزيزاتى ، ان هذه الملابس يجب استبدالها بغيرها ابسط منها زيـا والطف شكـلا وادعـى الى الرضى والارتياح ! ذلك لان الالبسة الفاخرة اصبحت غير لائقة بنا ، بعد ان صرنا عاجزين عن الحصول على المال اللازم لابتياع الالبسة الضرورية ! ٠٠٠ ولعلها لا تليق ، ايضا ، حتى بالاغنياء هذا اذا اعتبرنا امكانية ستر اجسام الفقراء ـ بالالبسة الفاخرة ـ غـير الضرورية التى يتباهى الاغنيـاء بارتدائها !»

كان لكلماتى هذه ، وقعها الحسن في قلوبهن ، فاسرعن ، توا الى استبدال ملابسهن ٠٠ وكم كان سرورى عظيما ، لما رأيت ابنتاى منهمكتين ـ في اليوم التالى ـ باقتطاع اذيال ثيابهن الطويله ، ليصنعن منها صدرات للصغيرين من اولادى : دك وبل ! فبدت بتقصيرها اجمل واظرف من ذى قبل !

ـ ٥ ـ

كان القس السابق قد اقـام «مقعدا» ، في مكان يقع على مسافـة قصيرة من بيتنا تظلله شجرة وارفة الاغصان ٠٠ ففى وقت يكون فيه الجو بديعا ، والسماء صافية الاديم ، وفـى سكون الامسيات الجميلة ، كنـا نؤم هذا المكان ، لنمتع انظارنا بالمناظـر الطبيعية الخلابة ، الممتدة على مسافات واسعة ، حينا ، ولتناول الشاى احيانا اخرى ، وفي مثل هذه السوانح ، كـان ولدى الصغيرين يقرأ لنا ، وكنت اطلب اليهما تسليتنا بمختلـف ضروب اللهو ٠ وكانت الابنتان تنشدانـنـا الحانهما المفضلة ، وتداعبان باناملهما اوتار القيثار ٠٠ امـا انا وزوجتى . فكنا نتخذ مكانا على الجانب المنحدر من الحقل ، وقد كسته الطبيعة بزهور الربيع البهية ، لنتحدث عن اولادنـا وشؤونهم المختلفة ، ولنتنسم الهـواء العليل ونتشمم شذى الربيع المنعش الملهم !!

خرجت ذات يوم ـ انا وعائلتـى ـ وكان بدء فصل الخريف ، نقصد مكاننا المعتاد للتسلية واللهو ، وقد اخـذت الموسيقيتان الصغيرتان تطربانـنـا بالحانهما الشجية ٠٠ وفي هذه اللحظة لمحنا ، على بعد عشرين خطوة منـا ، ايلا جميلا ، ينهب الارض نهبا ، وقرناه المبسوطان المثبتان برأسـه الضخم ،

ينطحان الفضاء كانه هارب من وجه صياد يطارده ... وما كادت الافكار تزحمنا بشأن هذا الحيوان التعس ، والمصير المحزن ، الذى سيؤول اليه ، حتى رأينا على مسافة قريبة منه ، كلاب القنص ، تتبعها الخيالة ، وهى تنقب الارض بسنابك خيلها كانها تخوض معركة حربية!! والذين تقدموا من هواة الصيد ، قد مرقوا بجانبنا مروق السهم ! يتبعهم اربعة او خمسة صيادين ، ايضا ، يستحثون جيادهم لتجرى باقصى سرعتها !.. واخيرا ، رأينا شابا يبدو ارفع منزلة من رفاقه الصيادة ، وانبل شكلا ، يتجه نحونا .. وبعد ان تأمل وجوهنا برهة ، سلم زمام حصانه للرجل القائم على خدمته ، ثم تقدم الينا ، مختالا ، متباهيا بشىء من العجرفة والاستهتار!

لم يقدم لنا نفسه ، حتى ولا ذكر لنا اسمه ، بل اخذ طريقه توا ، الى حيث كانت تجلس ابنتى ليحييهما ، وبدا كالواثق من الترحيب به ترحيبا لطيفا ، لائقا به ! الا انهما تشجعتا ، ونظرتا اليه ببرود عجيب ! لانهما كانتا قد تعلمتا سابقا ، كيف تواجهان مثل هذا الموقف الجرىء الوقح !!

واخيرا ، قدم لنا نفسه ، وقال ان اسمه «ثورنهل» وانه صاحب جميع الاطيان ، الممتدة على مسافات واسعة حولنا ـ وقد كانت ، فعلا ، تغطى مئات من الافدنة ، من اطرف البقع في تلك الجهات من الارض ! ـ ثم التفت الى زوجتى وابنتاى ، وحياهن مرة اخرى ، فردن تحيته بمثلها ، ولم يقابل بالصد بل نال حظوة في اعينهن جميعا ، (فما اقوى سحر الغنى ، وما ابعد تأثير الالبسة الفاخرة فى النفس البشرية !)

كان اسلوب حديث زائرنا بسيطا ، مؤنسا بعض الشىء ـ وان كان على شىء من الجرأة والوقاحة ـ لذلك ، ما مر طويل وقت على اجتماعنا به ، حتى زادت الالفة ورفعت الكلفة ، ذلك انه لما لمحت عيناه القيثار على الارض ، طلب الينا التكرم عليه باسماعه انشودة لطيفة ..

من رأيى انه ليس من مصلحة الفقراء في شىء ، ان تبلغ صلتهم بالاغنياء مثل هذا الحد من التطرف .. قد تكون لنا معرفة باسماءهم ، والقابهم على ان معرفتنا هذه ، يجب ان لا تتجاوز حدود التحية العابرة ... ان اصدقاء المرء المخلصين ومعارفه الحقيقيين ، يجب ان يكونوا مثله منزلة ومقاما ...

وعليه، فقد غمزت ابنتى ،مشيرا اليهما ان تتمنعا عن تلبية طلبه ، لكن لمهما اومأت اليهما برأسها ، ان تغنياه ولو اغنية واحدة ! ... فاطاعتاها ،

وراحتا على الاثر ، تنشدان اغنيـــة محبوبة ، من تاليف الشاعر الكبـــير «درايدن (١)» !

التمعت اسارير وجه السيد ثورنهل واخذته نشوة من الفرح ، وطـــرب لصوتهما ، فلم يتمالك نفسه مـــن الهتاف والثناء عليهما ، ثم تنـــاول القيثار بيده ، وراح ينقر على اوتاره نقرات بلهاء منفرة ، ومع ذلك فقـــد رددت ابنتى الكبرى على ثنائه وهتافه، بثناء وهتاف اعلى منه ! ثم قالت له ، ان نغمات صوته كانت اوقع في النفس وارفع من نغمات صوت استاذهـــا المعلم فحنى لها رأسه استجابة لهـــذا التقدير ، فبادلته هذه المجاملة اللطيفه بحنى رأسها هى ايضا ، ثم عاد يمدح بها ويثنى على ذوقها الموسيقى الرفيع وحاستها الفنية ، فبادلته مديحه هذا بمديح اخر ، تناولت فهمه الصحيح لهـــا !!

من الواضح انهما لو تعارف احدهما بالآخر منذ عدة سنوات ، لما اظهـــرا من التحاب وعدم الكلفة ، ما اظهـــرا في تلك الدقائق القليلة !.. والغريب في الامر ان الام الحمقاء ، التى طغى عليها الابتهاج والسرور بالزائـــر الغريب ، لم تتوانى عن دعوتها له الى البيت ليتذوق كأسا من خمرها الذى تصنعه بيدها ! وقد ظهر لى ، حينئـذ ان جميع افراد العائلة كانوا يتسابقون الى ارضائه وخطب وده ! فالابنتـــان حاولتا منادمته ببعض المواضيـــع الاجتماعية المتعلقة بالجيل الصاعد ، حسب ظنهما ، اما موسى الصغير فقد ناظره في بعض مسائل ، نقلا عن بعض الكتاب الاغريق القدماء ، فاضحـــك الجميع !... أما دك وبل (الطفلين الصغيرين) فلم يكونا اقل انشغالا ـ من باقى افراد العائلة ـ بالزائر الغريب اذ التصقا به ولازماه كظله ! وعلـــى الرغم من كل محاولة بذلتها لاقصائهما عنه ، فقد استمرا في تحسس ثيابـــه الجميلة ، باصابعهما القذرة ورفـــع «ذيل» جيب سترته ، لعلهما يجـــدان شيئا «غريبا» داخلها !)

ولما تقارب المساء ، استأذننـــا بالانصراف ، بعد ان طلب الينا السماح له بتجديد زيارته لنا في الايام المقبلة !ـ وباعتبار كونه صاحب الاطيـــان ، التى نحتل قسما منها ، بحكم وظيفتى ـ فقد اجبناه الى طلبه بكل سرور !

سرعان ما توارى زائرنا عن الانظار، حتى دعتنا زوجتى لعقد اجتمـــاع ، نتدارس فيه نتائج اعمال ذلك اليـــوم .. فكان رأيها ، ان المصادفة التـــى جمعتنا بالزائر الغريب ، كانت ضربة من «القدر» سعيدة ! وذاكرت ـ كذلك

---

**(١) شاعر انكليزى (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) اشتهر في عصره بترجماتـــه الشعرية الحرة للشعراء اللاتين وبخاصة ترجمته للانياذة . (المعرب)**

ـ على سبيل المثال ، حوادث اخرى ، اكثر غرابة من هذه ، انتهت جميعها «باليمن والاقبال» وعللت نفسها باقتراب اليوم الذى نستطيع فيه ان نرفع رؤوسنا عاليا ، ونعيش كما يعيش القوم الموسرين في البلاد !! واحتجت ، ايضا قائلة ، انها لا ترى سببا يبرر زواج الآنستان «ونكز» برجال مترفين ذوى ثروات كبيرة ، وحرمان ابنتينا من نصيب كهذا !!

فاعترضت على هذا الجدال ، قائلا «انى لا ارى ، ايضا ، سببا لذلك ، ولا لربح السيد «سمكنز» جوائز بقيمة عشرة الاف جنيه وعدم ربحنا شيئا»

فرفعت زوجتى عقيرتها ، قائلة : «انى اعرف نهجك في الحياة وخطتك التى تسير عليها دوما ! فكلما طابت قلوبنا ، وانبعث الامل فى نفوسنا ، تثبط من عزائمنا وتخمد فينا شعلة الهمم !! » ثم التفتت الى صوفيا ، وسألتها ، قائلة : «ما رأيك ، ايتها العزيزة ، صوفيا بزائرنا الجديد ؟ الا ترين معى ، انه ينطوى على كثير من طيب العنصر وكرم الاخلاق ؟!»

فاجابت صوفيا : «انه لكذلك ، ياماه ، بل انه اعظم من ذلك بكثير واظن انه على شىء لا بأس به من العلم والمعرفة ، لكنه كثير الكلام في المواضيع التافهة الزرية !»

ولكن اوليفيا صرحت ، قائلة : «انه ، ولا شك ، لين العريكة ، مسر بعض الشىء ، ولكن اذا اردتم الوقوف على رأيى الخاص بشأن هذا الرجل ، فانى اقول ، بكل صراحة ، انه لم يصادف هوى في قلبى ... وجرأته في منتهى الوقاحة ، وبخاصة تعديه حدود الالفة ... واما عزفه على القيثار ، فكان جد منفر مما لا يستسيغه الذوق السليم !»

واضح تماما ، ولا شك ، في ان هذين التصريحين المناقضين ، كانا ينطويان على العكس تماما .. كانت صوفيا تحتقر السيد ثورنهل احتقارا شديدا ، في حين كانت اوليفيا شديدة الاعجاب به ! .. عندئذ ، التفت اليهما وقلت :

«مهما كانت آراؤكن في السيد ثورنهل ، فانى اقر واعترف بانه لم يلق في قلبى قبولا قط ! فعلى الرغم من انسه والبساطة التى يتظاهر بها امامنا ، فانه لم يغب عن فكره ولا عن ناظريه ـ طول وقت مكوثه معنا ـ الفرق الشاسع الفاصل بيننا وبينه ! فليتنا نحتفظ فقط بالاصدقاء والمعارف الذين تجمعنا واياهم منزلة واحدة ومقام واحد ... فما اشد ما يحتقر الناس ، الرجل الذى يسعى الى الزواج بامرأة من اجل ثروتها !! انه

في نظرهم خسيس النفس ، حقيرها ٠٠ لانه يجعل من الزواج طريقا للاثراء كذلك المرأة ، ايضا ، فانى لا ارى سببا ، يحول دون اعتبارها حقيرة النفس ، خسيستها ، اذا ما حاولت الاثراء عن هذا الطريق - عينه ! فاذا كان السيد ثورنهل ، رجلا شريفا محترما ، ويفكر ، فعلا ، بالزواج ، فلن تكونن في نظر القوم، سوى طالبى الثراء عن هذا السبيل ! وبالتالى ، حقيرين ، خساسا ! ٠٠ وان لم يكن كذلك ٠٠ آه ! كلما فكرت في هذا الموضوع ، تعترينى رجفة وتصطك ركبتاى ! انا لا اشك في حسن سلوك ابنتى ، مطلقا ، ولكن ٠٠٠ يجب ان نحسب لاخلاق هذا الرجل ونخشى سلوكه !»

كنت اود ان اتكلم اكثر عن هذا الرجل غير ان خادمه افسد على الحديث بدخوله ، علينا ، حاملا قطعة من لحم الايل ، ووعدا من سيده بتناول طعام العشاء معنا في الايام التالية ٠٠

ان هذه الهدية التى جائتنا من السيد ثورنهل ، فى الوقت المناسب، قد قطعت على الكلام ، الذى كدت ان احط به من قيمته الشخصية فلم يسعنى ، اذ ذاك ، الا الاخلاد الى الصمت ، والاكتفاء بالاشارة الى الخطر المحدق ، تاركا امره الى زوجتى وابنتى للعمل على تجنبه واتقائه ، بما عرفن به من رجاحة في العقل وقوة فى الروية !

— ٦ —

لقد تم الاتفاق على ان نتناول قسما من لحم الايل في عشية ذلك اليوم ٠

وقد اخذت الابنتان على عاتقهما ،اعداد الطعام بمزيد من الرغبة والحماس

فالتفت عندئذ ، الى عائلتى وقلت «انما يؤسفنى جدا ، هو حرماننا من جار او قريب ، يشاركنا هذه الوليمة ٠٠ فالجار او القريب يتمتع بلذة مزدوجة في الوليمة : لذة الاكل ، ولذة اكرام مضيفه له ٠٠٠ وهكذا تكسب الضيافة صاحبها ، فرحا مزدوجا »!

فصرخت زوجتى : « يا للغرابة !هوذا صديقنا الكريم السيد برتشل قادم ! ٠٠ الذى انقذ حياة صوفيا من الغرق ٠٠ والذى انتصر عليك في ميدان الجدال والمناقشة »!!

فاجبتها قائلا : « بماذا تهرفين ، يا صغيرتي ؟! انك جد مخطئة يا عزيزتي فالذين يمكنهم ان يكتسبوا معركة الجدال منى ، هم اقل بكثير مما تظنين ثم انى لا انكر عليك براعتك في ادارة شؤون البيت ، ولا انكر عليك ، مهارتك في فن الطهى .. لكنى ارجوك ان لا تنكرى على براعتى في الحديث ومقدرتي الفذة في الجدال» .

فى هذه اللحظة ، دخل السيد برتشل البيت ، فرحبت به العائلة اجمل ترحيب وصافحه الجميع مصافحة ود خالصة ، بينما اسرع دك الصغير واحضر له كرسيا ليجلس عليه .

لقد سرت نفسى لصداقة هذا الرجل المسكين ، لانى أحسست انه بحاجة ماسة الى صداقتى ، وقد عرف بالحى «بالسيد الفقير» الذى كان يعوزه حسن التصرف في سنى حداثته ، وكان اذا تكلم من حين الى اخر ، لا يخرج لسانه عن حدود المنطق والادراك الصحيح ، لكنه كان الى ذلك ، مغرما بمرافقة الاولاد الصغار ، الذين اعتاد ان يدعوهم «بالرجال الصغار الامناء» ! واشتهر باناشيده التى كان يطربهم بها ، وبالحكايات التى يقصها عليهم! وقلما خرج من بيته دون ان يضع شيئا في جيبه ليعطيهم اياه : فمن قطعة من الحلوى ، الى صفارة او ما اشبه ذلك من لعب الاطفال . وكثيرا ما كان يؤم حينا ليمضى فيه بضعة ايام من السنة ينزل فيها ضيفا ، على هذا او ذاك من الجيران الاكارم ..

جلس السيد برتشل بيننا لتناول طعام العشاء ، ولم تبخل علينا زوجتى بنبيذها الذى تصنعه في البيت ... وكانت قصصه تنتقل من هذا الفم الى ذاك ، وقد غنانا بعض اناشيده القديمة وقص على الاولاد بعض اساطير الجان اللطيفة !

كان ديكنا يصيح دائما ، عند الفجر كانه يأمرنا بالنهوض من الفراش !. والغريب في امر هذا الديك ، انه كان لصياحه في الساعة الحادية عشرة ليلا، نغمة خاصة تحمل الينا امره ايضا ، بأن نأوى الى فراشنا !

وقد تمثلت امامنا مشكلة ، لم نكن نحسب لها حسابا ، الا وهى مسالة ايواء رجل غريب وقت النوم ، اذ كانت الأسرة كلها مشغولة ، وكان من العسير ان نرسله الى اقرب فندق يقضى فيه ليلته بعد فوات الاوان .

ازاء هذه المشكلة ، وقف دك الصغير وقدم مكانه من الفراش الذى يشغله ، على ان يسمح له اخوه موسى ، بان يشاركه في سريره .. ثم هتف بل قائلا : « انى بكل سرور اقدم مكانى من الفراش للسيد برتشل ، اذا سمحت

لى اختاى ان اشاركهما سريرهما !»

فصرخت قائلا : « حسنا فعلتما ،ايها الولدين الصالحين ، ان اكرام الضيف من اولى الوجبات التى تقضى بها الديانة المسيحية ! » ثم التفت الى زوجتى وقلت : « ايتها العزيزة «ديبورة» ، اعط كلا من الولدين قطعة من الحلوى ، ولتكن قطعة دك الكبرى لانه كان اول المتكلمين !»

وفي الصباح الباكر ، دعوت جميع افراد العائلة للخروج معا الى الحقل لجمع البرسيم فعرض السيد برتشل مساعدته لنا فسررنا لهذا العرض ..

لم تغل عينى عن مراقبة السيد برتشل اثناء عمله وملاحظة رغبته الاكيدة في بذل معونته لابنتى صوفيا ،في الجزء المسئولة عنه من الحقل ، سواء في حصد البرسيم او جمعه . فلما كان ينهى القسم المخصص له في الحقل يشترك مع صوفيا في الجزء المعين لها منه ويطارحها حديثا مكنونا ، غير مسموع ، لكن معرفتى لادراك صوفيا جعلتنى اعتقد بانها ابعد ما تكون انزعاجا وضيقا من رجل بائس ، معدم كالسيد برتشل .

وفي المساء ، بعد انتهاء يوما كاملا من العمل المتواصل ، دعونا السيد برتشل لقضاء ليلته عندنا كالليلة السابقة ، لكنه رفض الدعوة هذه المرة ، لانه كان قد وعد احد الجيران بالمبيت عنده تلك الليلة ، ولم ينس ان يحمل لابنه ـ ابن المضيف ـ ،صفارة ، حسب عادته ، كتذكار ! ولما مضى عنا ، كان حديثنا على العشاء يدور حول هذا الضيف التعس ، الضعيف ، فقلت ، « كثيرا ما تكلمت في احاديثى الوعظية عن البؤس الذى يحيق بالرجل ، الذى يقضى على شبابه وثروته ، بتصرفاته الحمقاء وتبذيره الطائش الجنونى ، وهاكم مثلا ، السيد برتشل . انه «صورة» الرجل التعس ، البائس تماما ! يا له من مخلوق مخذول ، حقير ! اين هم المتملقون ، المداهنون الذين لازموه فيما مضى من حياته ؟.. اين هم ؟.. ان الذين امتدحوه وتغنوا بالثناء عليه في الماضى ، يضحكون منه الان ، وبه يستهزئون !..»

لم انطق بهذه الكلمات المرة المؤلمة ، الا لاسباب خفية عندى ، لكن صوفيا لامتنى على ذلك بلطف ، اذ قالت : « مهما كانت سلوكه في الماضى فليس من الصواب ، ولا من الحكمة في شيء ، ان نلومه او نبكته عليه ! حسبه عقابا على حماقته السابقة ما يعانيه الان من آلام الفقر والعوز .. وليس من حقنا ان نلوم انسانا او نبكته ،وقد عاقبه الله على حماقته وجهله !» وهنا قال ابنى موسى : « لست ادرى،ايتها العزيزة صوفيا ، ان كان هذا

الرجل تعسا حقا ، كما ظهر لوالدى، مع انى لم ار انسانا اكثر انشراحا وحبورا منه اثناء حديثه معك هذا اليوم»؟

قال موسى هذا ، بمنتهى البراءة والسذاجة ، غير ان صوفيا احمر وجهها خجلا منه ، وبدا عليها الارتباك فحاولت اخفاء خجلها وارتباكها بضحكة ، قائلة انها قلما التفتت الى حديث السيد برتشل ، ولم تعره اى انتباه ..

ان الخجل الذى بدا على محيا صوفيا ، كان علامة لم ارض عنها قط! الا اننى كتمت ، مع ذلك ، شكوكى واخفيت ظنونى ...

واذ كنا ننتظر زيارة المالك (صاحب البيت) في اليوم التالى ، اخذت زوجتى تقوم باعداد الطعام ، واشغل ابنى موسى نفسه بالدرس والمطالعة ، بينما كنت انا اقوم بتلقين ولدى الصغيرين دروسهما ، اما الابنتان ، اوليفيا وصوفيا ، فقد بدتا ، منهمكتين ... فظننت اول الامر ، انهما كانتا «تطبخان» شيئا على النار من قبيل مساعدة امهمهما في عملها ... لكن دك الصغير ، جاءنى وهمس في اذنى، قائلا، انهما كانتا تعدان «غسلة»(١) لاجل الوجه ! ولما كنت شديد الكراهية لكل غسلة ، مهما كان نوعها لانها تفسد على الوجه صفائه ونضارته الطبيعيتان ، بدلا من تحسينه ... لذلك ، ادنيت كرسى من النار شيئا فشيئا ، ثم اخذت المسعر بيدى ، متظاهرا بتحريكها ، وكسر قطع الفحم فيها ، لكى يزداد سعيرها توهجا !.. حينئذ ، دفعت الاناء بالمسعر دفعة واحدة خفيفة ، فانقلب على الاثر ، كما لو كان قضاء وقدرا !... وهكذا ضاعت عليهما «الغسلة» ولما كان الوقت قد فات انصرفتا عن تهيئة غسلة اخرى ...

— ١ —

كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق صباح اليوم الذى كان علينا ان ندعو فيه زائرنا الشاب ، صاحب الاطيان حولنا .. ولهذه المناسبة ، لبست زوجتى وابنتاى ابهى واجمل ما عندهن من الملابس، وما لبث السيد ثورنهل ان جاءنا مصحوبا بصديقان له : قسيسه الخاص وشخص اخر . وعند وصوله ، اقترح ، بكل ادب ،ولباقة ان يذهب خدمه ( وكانوا كثيرى العدد ) الى اقرب فندق ، لكن زوجتى المعروفة بغيرتها الشديدة وشهامتها النبيلة ، رفضت ، بكل اباء ، هذا الاقتراح ، واصرت على اضافة الجميع.

1) Wash

وكان من جراء هذه الضيافة ، ان اضطرت العائلة ، الى التقتير في الطعام لمدة ثلاث اسابيع !

كان السيد ثورنهل قد طلب يد الانسة ويلموت (خطيبة ابنى جورج السابقة) مما جعل استقبالنا له اقل حماسا وحرارة ، لكن حادثا مفاجئا اعاد كل شيء الى نصابه، اذ ذكر احد الضيوف - في سياق حديثه - اسم الانسة ويلموت ، فما كان من السيد ثورنهل الا ان يفوه بقسما غريبا ، اذ قال : «قبح الله وجهى ! ان كنت قد سمعت في حياتى كلها ، كلاما اقرب الى الحماقة والجنون من اعتبار هذه المخلوقة القبيحة «مثال الحسن والجمال» . ثم اردف بصوته الاجش : « قبح الله وجهى ان كنت لا استطيع في اى مساء ان اختار من «الشارع» وتحت ضوء الشمعة الباهت ، فتاة اجمل منها » فضحك لدعابته وضحكنا لها نحن ايضا ( ولا عجب في ذلك ، فمزاح الاغنياء يسبق كل مزاح اخر الى الضحك والاستضحاك حتى ان اوليفيا ، لم تتمالك نفسها من ان تهمس ، بصوت مسموع ، قائلة : « ان للسيد ثورنهل روحا فكاهية لاحد لها »!.

وحسب عادتى ، دعوت ضيوفنا الكرام ، بعد الغداء ، الى شرب نخب الكنيسة الامر الذى جعل القسيس - مرافق السيد ثورنهل - يشكرنى ويثنى على قائلا : «ان الكنيسة ، هى بالحق ، حبيبة قلبى دون منازع!»

فصاح السيد ثورنهل مقسما «لا ، لا ، ان فتاة جميلة اثمن عندى وافضل من جميع الكهنة والكنائس في العالم ! فما الدين سوى هذيان وادعاء باطل ... ثم عقب ذلك جدال سخيف حول الدين وامور .. بين السيد ثورنهل وابنى موسى .. ولكن ما لبث السيد ثورنهل ، بما عرف عنه من قوة في البديهة والنكتة الحلوة ، ان اثار الضحك على موسى المسكين : فجلس متجهم الوجه حزينا في وسط جماعة قد طفح الفرح والسرور على وجوههم جلس في وسطهم هكذا ، حتى نهاية المأدبة ، دون ان ينبس ببنت شفة ، بل دون ان يهتم به احد ..

ان حديث السيد ثورنهل لم يسرنى ، ومع ذلك ، كان له في نفس اوليفيا تأثيرا مغايرا ، لانها اعتبرت حديثه نوعا من انواع الفكاهة ، وحسبته رجلا على جانب من طيبة النفس ورقة الجانب . ولا شك عندى ان الذين يعتبرون الشكل الحسن والالبسة الفاخرة والثروة الكبيرة .. ان الذين يعتبرون هذه الصفات ، كلها او بعضها ، من العوامل التى تجعل من الانسان سيدا محترما كريما ، لايرون غضاضة في الصفح عن ابنتى اوليفيا ..

ان جهل السيد ثورنهل كان واضحا وضح النهار ، ومع ذلك كان يتكلم بسهولة وطلاقة ، كمن ملك ناصية الفهم والعرفان !.. وعلى الرغم من حماقته وغباوته الظاهرتان فقد تحدث في المواضيع العامة بمهارة وبراعة عجيبتان ، وباسلوب الرجل العاقل الحكيم !

تتعلم الفتيات ، اول ما تتعلم الاهتمام بالمظاهر الخارجية والعناية بها والمحافظة عليها ، اذن فليس من الغرابة في شيء ان ينخدعن بمظاهر الاخرين من الناس ..

على اثر انصراف ضيفنا وجماعته دخلنا ثانية في جدال عنيف ونقاش طويل ، حول مؤهلات اقطاعينا الشاب واستحقاقاته البارزة ... فراح بعضنا يؤكد ان للسيد ثورنهل مزايا عظيمه وصفات مدهشة جديرة بالتقدير والاعجاب !!. واما البعض الاخر (وانا منهم طبعا) فلم ير فيه اية ميزة او صفة حميدة من حيث الفضيلة و شرف النفس ... وليس من شك ان الغرض الذى كان يهدف اليه من وراء زياراته لنا ، لم يكن سوى خطب ود ابنتى اوليفيا ، بدليل تلك النظرات والاحاديث التى كان يخصها بها اثناء وجوده بين ظهرانينا ... حتى ان اوليفيا نفسها لم تكن لتبدى اى استياء او نفور من الدعابات البريئة التى كان يثيرها اخوها واختها ، الفينة بعد الفينة ، بهذا الصدد ، وحتى زوجتى نفسها لم تتردد في مشاركة ابنتها « مجد » ذلك اليوم ومقاسمتها فرحة هذا الانتصار العظيم ، كأنه انتصارها هى بالذات ..

«والآن ، يا عزيزى ، انى اقر واعترف ، بالحق والانصاف ، بانى انا التى اوصيت ابنتى بان تشجع السيد ثورنهل على التمادى في الكلام ! انى اقر بهذا صراحة ! لان الامال كانت وما زالت تراودنى !.. وانك لترى الان ، انى كنت على حق فى هذا كله ، ومن يدرى كيف ستكون الخاتمة ؟!» قالت زوجتى ذلك ، كأنها تريد ان تعرف حقيقة موقفى الراهن فاجبتها ، والحزن يمزق قلبى :

«اوه ، ايتها العزيزة ، من يدرى ، على التحقيق ، كيف ستكون النهاية؟! فانا من جهتى ، بكل صراحة اقول انى لست راضيا عن هذا كله ، مطلقا! لان سرورى برجل فقير الحال ، شريف النفس ، يعادل اضعاف سرورى بمثل هذا «السيد الظريف» الغنى الخائن !! ان رجلا يعرض بالدين ويحط من قيمه الروحية ، شأن السيد ثورنهل ، لن يكون زوجا لاحدى ابنتى ما حييت !!»

عندئذ اجابت زوجتي قائلة ، ان كثيرين من معارفنا المعروفين بالفطنه والذكاء كانوا احرار الفكر في امور الدين المختلفة ، الى درجة الالحاد ، فاصبحوا ، بعد ذلك ازواجا صالحين وانها عرفت من الفتيات العاقلات ، من استطعن – بفضل ذكائهن وفطنتهن ان يهدين ازواجهن الى الصراط المستقيم ... «ومن يدرى ، يا عزيزى ما تستطيع ابنتنا اوليفيا ان تعمله بهذا الصدد؟!» .

— ٨ —

في صباح اليوم التالى زارنا السيد برتشل ، للمرة الثالثة في بحر ايام قليلة ، فبدأت احس – بشيء من التبرم والامتعاض من تكرار زياراته لنا ... ان الانسان ليجد عند مضيفه الترحاب والقبول ، كلما كانت زياراته له في فترات متباعدة ... اما اذا تكررت زياراته دونما دعوة او مناسبة ، فانه – مهما بلغ من اللطف والايناس – لا يجد سوى النفور والامتعاض ..

الحق اقول ان السيد برتشل قد فاق بخدمته لنا طاقتنا على تكريمه واضافته كما يجب ، لانه ما فتىء يعمل معنا بنشاط عظيم ، في حقل البرسيم ! علاوة على كونه ودودا ، دمث الاخلاق كيفما اختبرته .. وكان دائما يسلينا ويحمل الينا اطرف النكات واحلاها . وعلى الرغم من كونه غريب الاطوار الى حد ما ، فقد كان مرهف الحس دقيق الشعور الى حد بعيد ، لذلك فقد احببته وهزأت به وشفقت عليه في آن واحد !! لكن الشيء الوحيد الذى جعلنى اشمئز منه ، هو اسرافه في تحببه الى ابنتى صوفيا ، حتى انه دعاها مرة ، على سبيل الدعابة بـ«حبوبته الصغيرة» وكان كلما احضر معه شرائط ، يخص صوفيا ، دون اختها ، باجمل شريطة وازهاها !.

لست ادرى سببا لتزايد لطفه وانسه يوما بعد يوم ، ولاح لى ان ذكائه بدأ يتحسن ويتطور حينا بعد اخر ، لكننى استطعت اخيرا ان ارى في سذاجة حياته التى كان يحياها الحكمة والروية ..

تناولنا طعام العشاء في الحقل ، على مائدة رتبت فوق طبقة من البرسيم ومما زاد بهجتنا على المائدة ، ما اسبغه علينا السيد برتشل من روحه المرحة ، الطيبة ... وكان للتغاريد الشجية التى كنا نسمعها والتى كان يتجاوبها طيران جاثمان على السياج المقابلة لنا ، ما اطربنا ، وانعش

نفوسنا !.. لم نرهما ، لانهما كانا مختبئين بين اوراق السياج ، مع ذلك ، كانت الحانهما تصل الى اذاننا فنطرب لها ايما طرب ، وبعد قليل ، هبط علينا طير صغير يسمى «ابو الحن»(١) والتقط فتات الخبز من ايدينا .. ان كل صوت كان يوحي بجو عاطر بالطمانينة والسلام ...

بينما نحن كذلك ، اذا ابنتي صوفيا تبدأ حديثا لذيذا قائلة : انني كلما ضمني مجلس كهذا ، افكر بذينك الحبيبين الذين وصفهما الشاعر «جي»(٢) في قصيدة له ، والذين فاجأهما الموت وهما ممسكين باذرعهما !.. ان في هذا الوصف الرائع شيئا مؤلما ومحزنا جدا ! وانني لاراه وصفا دقيقا قد فاق الطبيعة في روعته وجماله لذلك ، قرأته اكثر من مائة مرة ، ولا ازال اقرأه كلما سنحت لي فرصة للمطالعة» ...

ساقنا هذا الكلام الى الحديث عن الشعر ... ثم اخذ السيد برتشل يتلو على مسامعنا قصيدة من نظمه يصف فيها غرام «اودين وانجلينا» واثناء تلاوة القصيدة بدت صوفيا جد متلذذة ، واظهرت من الميل والعطف الى ناظمها ما استرعى التفاتنا ولكن سرعان ما كدر علينا صفونا وطمانينتنا ، طلق ناري ، دوى دويا شديدا ، على بعد خطوات قليلة منا ، ثم رأينا حيث مصدر الصوت ، رجلا يشق طريقه وسط السياج ، ليلتقط المخلوق الذي قتله !

لم يكن هذا الرجل سوى قسيس السيد ثورنهل الخاص .. وكان الطير الذي اصطاده هو احدى ذينك الطيران اللذان كانا يطربانا بانغامهما العذبة . وكان لدوى الطلق الناري الذي اطلقه من القوة بحيث ذعرت على اثره ابنتاي واجفلتا ... وقد شاهدت ابنتي صوفيا ـ بعد ان اخذ منها الذعر كل مأخذ ـ ترتمي بين ذراعي السيد برتشل لحمايتها !.

عندئذ ، تقدم الينا القسيس معتذرا عما حصل عن تصرفه من اضطراب وخوف ، واكد لنا انه لم يكن يعلم بوجودنا في تلك الناحية ... ثم اخذ مجلسه الى جانب ابنتي الصغرى وبروح رياضية سمحة ، قدم لها كل ما كان قد وفق الى صيده ذلك الصباح ، وسالها ان كانت تقبل هديته هذه ؟

كانت على وشك ان تجيبه سلبا ، لكن نظرة خاصة من امها ، حملتها على اصلاح خطأها ، فقبلت منه هديته وشكرته ـ مكرهة .. وهنا ، اماطت زوجتي اللثام ـ حسب عادتها في مثل هذه المواقف ـ عن كبريائها وهمست قائلة : «ان صوفيا قد غزت قلب القسيس بجمالها ، كما غزت قبلها

---

1) Red-breast 2) Gay ( ١٦٨٥ ـ ١٧٣٢ )

اوليفيا قلب السيد ثورنهل !! اما انافشككت في الامر ، واعتقدت اعتقادا راسخا بان قلب صوفيا قد انتقل الى قلب شخص اخر ...

وفي تلك الاثناء ، جلس القسيس شارحا الغرض من زيارته ، قال :

«جئتكم لقضاء مهمة كلفنى بها السيد ثورنهل ... وان الغاية السارة من حضوري اليكم ، هى دعوتكم الى تناول طعام العشاء معه على مائدة جمعت الوان مختلفة من المرطبات .ولاحياء حفلة موسيقية راقصة ، وقد اراد ان يمنح الانستين فرصة للرقص في ضوء القمر على المرجة الخضراء قرب مدخل بيتكم . ـ واؤكد لحضراتكم انى جد سعيد بالقيام بهذه المهمة ! ومعلوم ان للرسول مكافأة حين يبلغ رسالة ما !.. وما اتوقعه من الاجر والجزاء هو الشرف بجعل الانسة صوفيا شريكتى في الرقص .

فاجابت ابنتى قائلة ، انها لا يمكنها ان تعد القسيس وعد شرف بان تكون رفيقته في الرقص ، «لان هذا السيد» مشيرة الى السيد برتشل .. «كان رفيقى وشريكى في كل اعمالى هذا اليوم ، لذلك يحق له ان يشاركنى افراحى ومسراتى ..»

فشكرها السيد برتشل على حسن تفكيرها به واخلاصها له واعتذر قائلا ، انه مضطر الى اجتياز مسافة خمسة اميال ، تلبية لدعوة احد اصدقاءه لتناول طعام «الحصاد» !..فكان رفضه دعوة ابنتى صوفيا ، مثارا للعجب والاستغراب !. الا انى لم استطع ، مع ذلك ، ان ادرك سر تفضيل فتاة عاقلة ـ كابنتى صوفيا ـ رجلا فقيرا تعسا ، على رجل اخر تعلق عليه الامال الجسام !!

ولكن ، كما ان الرجال قادرون على التمييز بين الغث والثمين من صفات المرأة ومؤهلاتها ، هكذا النساء ، فانهن قادرات على التمييز بين الصالح والطالح منهم ..وكانى بهذين الجنسين قد خلقا ليراقب احدهما الاخر ويتجسس عليه !... فالرجل يمكنه الحكم على هذه المرأة او تلك ، بما وهب من مزايا خاصة ، كما ان المرأة ايضا ، تستطيع ـ بما وهبت من قوة على التمييز ـ ان ترى ميزات الرجل ومؤهلاته .

حالما استأذن السيد برتشـــل بالانصراف ، قبلت صوفيا مراقصة القسيس تلبية لطلبه ، واذ ذاك جاءني ولداى الصغيران راكضين ، واخبراني بان السيد ثورنهل بطريقه الينـــا ،ومصحوبا «بجماعة كبيرة» من رفاقه فالتفت الى حيث اشار الولدين ، فرأيت الزائر الكريم قادما ، يرافقه رجلان وسيدتان مرتديتان من الملابســـس ازهاها وافخرهـــا فعرفنا بهمـــا قائلا ، ان نهاتين السيدتان شـــأواعظيما وجاها عريضا في المجتمع اللندنى العصرى ...

لم نكن نملك من المقاعد ما يكفـــى لجميع الزائرين ، فاقترح السيـــد ثورنهل ، على الفور ان يجلس كـــل رجل في حجر امرأة، فعارضت الاقتراح معارضة شديدة . فلما سمعت زوجتى معارضتى الشديدة هذه ، طلبت الى موسى ان يستعير لنا كرسيين .. ولما كان عدد الرجال يزيد عن عدد النساء باثنين ، فقد ذهب موسى برفقـــــة رجلين ،للبحث عن سيدتين تشاركانهما الرقص ..

بعد قليل توفرت المقاعد والسيدات .. فقد عاد الرجلان حالا ، وبرفقتهما ابنتا جارنا السيد فلامبورو ، وقـــد علت وجهاهما حمرة الشباب ، كمـــا زينت كل منهما رأسها بشريطـــــة حمراء اللون ....

ومع ان الانستان فلامبورو تعتبران من امهر الراقصات في الحى واكثـــر الفتيات معرفة بخطى الرقص البلدى ،الا انهما كانتا تجهلان خطى الرقص التى اعتادها السيد ثورنهل ورفاقـه اللنديون ـ وقد عانتا ، مع ذلك شيء من الصعوبة ، في بادىء الامر ، اذ كان شريكاهما يجرانهما جرا حينـــا ، ويدفعانهما دفعا حينا آخر طبقا لخطوات الاتجاه : سواء الى الامام ، او التراجع الى الوراء ، واخيرا وبعد قليل مـــن المران سارت الامور على هواهم في جو ملىء بالفرح والسرور .

كان القمر اقوى ما يكون سطوعا عندما ابتدأ السيد ثورنهل السهـرة بمراقصة ابنتى الكبرى ( اوليفيـــا ) على مرءاى من الجموع المحتشـــدة ذلك لان الجيران اذ تراميـــى الى مسامعهم خبر رقصنا وسمرنـــا، تقاطروا ، جماعات ووحدانا ، ووقفوا عند المرجة الخضراء كانهم قطيع مـــن الغنم ...

كانت ابنتى اوليفيا تتنقل وتتمايل في رقصها برشاقة فائقة ، لم تستطيع عندها زوجتى ،الا اما طة اللثام عـــن كبرياء قلبها وافتخارها ، فالتفتـــت

الى وقالت « لقد اجادت ابنتنا الرقص اجادة فائقة ، مع انها لم تتعلم خطى الرقص الا على نفسها ، وعبثا حاولت السيدتان اللندنيتان ان تضارعاها رشاقة وخفة ...

بعد مضى ساعة على بدء الرقص، اظهرت السيدتان خوفهما من ان تكون نسمات الليل الباردة خطرا عليهما ، فتصابان بصداع او زكام مؤلم .... واظن ان احداهما اعربت عن شعورها بهذا الصدد ، بشيء من الخشونة والسماجة ، اذ قالت : «اننى اكاد اختنق من غزارة العرق المتصبب من جسمى . » لا شك ، ان الرقص فى تلك الليلة الحارة ، كان متعبا مضنيا، ولكن في بعض الاحيان ، كانت تهب نسمات باردة لذيذة فتلطف من حرارة الجو .. وقد كان جبين السيدة ـ فعلا ـ يندى بالعرق ، لكن عبارة كتلك تصدر عن سيدة « راقية » لابد من ان يكون لها وقع سيء على سامعيها ...

واخيرا ، عدنا الى البيت ، فالفينا طعاما باردا شهيا للعشاء ، كان السيد ثورنهل قد احضره معه عند مجيئه . وكان الحديث في هذ المرة اكثر رصانة وتهذيبا ... وقد ظهر من السيدتان اللندنيتين براعة فائقة في الحديث تفوقتا به على ابنتى حتى لم يعد يحسب لهما فيه اى حساب ... فقد تحدثت السيدتان عن حياة البذخ والترف وما اشبه ذلك .. عدا عن مشاهير الشخصيات في لندن ، ثم انتقلتا الى الحديث عن السينما والذوق حينا ، وعن شكسبير حينا آخر .. وكانتا ـ اثناء حديثهما ـ تتحمسان وتحلقان ، كانهما تؤكدا للسامع كلامهما .... لكن هذا الاسلوب من الحلف والحماس لا تستسيغه الاذان واخيرا ، تبين لى، ان الحلف في حديثهما تعمدتاه كعلامة تتميز بها وجاهتهما . ومع هذا ، فان البستهما الفاخرة قد اسدلت ستارا كثيفا على كل ما اظهرتاه من خشونة وسماجة .. وعلى الرغم من كونهما سيدتان على جانب كبير من الكبرياء والظرف ، فقد تلطفت احداهما وقالت ، انه لو اتيح للانسة اوليفيا فرصة ، تلقى فيها نظرة ابعد مدى على العالم ، لتحسن وضعها الاجتماعى تحسنا كبيرا . فاضافت الاخرى الى كلامها ، قائلة ، انه يكفى الانسة صوفيا قضاء شتاء واحد في لندن، حتى ترى الفرق العظيم بين حياة المدن وبين ما هى عليه الان. فوافقت زوجتى على الفور بكثير من الحماس ، اذ قالت ، انه ليس ثمت شيء تتمناه من صميم قلبها ، من ان تمنح ابنتيها فرصة شتاء واحد ، « تصقلان » فيه نفسيهما في مجتمع صالح راق ..

فقلت : «لقد اصابت ابنتاى حظا وافرا من الثقافة والتربية فاق حظهما من الثراء ، لكن المزيد من التهذيب و « الصقل » في المجتمع الراقى ، لا يزيدهما الاشعورا واحساسا بفقرهما واندفاعا في طلب المسرات واستذواق الملذات ، مما لا يحق لهما التمتع بـه في وضعهما الحاضر »

وهنا صرخ السيد ثورنهل ، قائلا: « ان الذين يهبون كثيرا من الافراح والمسرات للغير ، يحق لهم ايضا ، ان يتمتعوا هم بشىء منها على الاقل ·· ان الحب والحرية واللذة ·· هذه الامور الثلاثة هى مطلبى الوحيد في الحياة ، ولو استطيع بنصف ما املك من عقارات واملاك ، ان اهب الفاتنة اوليفيا البهجة والسعادة لفعلت ·· لكن المكرمة الوحيدة التى اطلب اليكم التكرم على بها ، مقابل ذلك هى السماح لى ان اضيف نفسى الى مجموع هباتى هذه ··· »

لم اكن غريبا عن العالم حتى اجهله واجهل هذا الاسلوب من الحديث فى التعبير ـ بطريقة مهذبة ـ عن مطلب اقل ما يقال فيه ، انه دنىء ووقح ·مع ذلك فانى بذلت جهدا عظيما لان اخفى غضبى عن اعين الحضور ··· لكن اعصابى لم تطاوعنى فصرخت بـه « ان هذه العائلة قد نشات وترعرعت على الشعور بقيمة الشرف والكرامه ·· مثلك ·· ان كل محاولة ترمى الى النيل منها ومن كرامتها ستكون انذارا بوقوع خطر داهم · فكرامتنا وشرفنا ، ياسيدى ، هما كل ما نملك في الوقت الحاضر ·· لذلك يجب علينا ان نعنى باخر كنز لدينا عناية خاصة ···

ولكن سرعان ما احسست بالندم على اللهجة الحادة التى تكلمت بها ، اذ اسرع الى السيد ثورنهل ، وامسك بيدى ، بينا علت محياه ابتسامة لطيفة وقال ، انه معجب بمرؤتى وصراحتى ايما اعجاب وان انكر على ظنونى ثم اردف قائلا « انى اؤكد لك بالحجة والبرهان ، ان ليس ثمت شىء ابعد عن قلبى مثل هذا الظن ··»

ثم دخلت السيدتان في نقاش وجدال حول الفضيلة ، اشتركنا فيه جميعا ، انا وزوجتى وقسيس ثورنهل الخاص ·· واخيرا ، فكر الضيوف بالعودة الى منازلهم ، فطلبت السيدتان ان اسمح لابنتى بمرافقتهم ولو الى مسافة قصيرة من الطريق ، فثنى السيد ثورنهل على الطلب ، ثم ما لبثت زوجتى أن « ثلثت » بتوسلاتها واستعطافها ·· عندئذ التفتت ابنتاى نحوى ، كانهما تستعطفانى وتتوسلان الى ان اسمح لهما بالذهاب لكنى ··

تمنعت عن اجابة الطلب، بشتى الاعذار ولكن عندما الحت ابنتاى ، اضطررت اخيرا الى رفض طلبهم جميعا بصراحة واضحة ...

وفي اليوم التالى ، كنت اتلقى من زوجتى وابنتى - كنتيجة لرفض طلبهم في الامس - نظرات الغضب العابسة واجابات مقتضبة خشنة ..

- ١٠ -

كان العيد ، عيد القديس ميخائيل .. وكان جارنا « السيد فلامبورو » قد اعتاد ان يقيم حفلة ساهرة ، ليلة كل عيد يدعو فيها اصدقاؤه ، حيث يتناولون طعام العشاء ويتسامرون ويلعبون - مختلف الالعاب المسلية البريئة ... وكانت وزة العشاء - آنئذ - فاخرة شهية جدا . وهكذا قل عن الشراب المسمى « جزة الغنم » فقد اعتبره الجميع - حتى زوجتى - من النوع الفاخر الممتاز .. والواقع ان اسلوب جارنا في سرد القصص والحكايات ، لم يكن ممتعا او مستحبا اذ ان حكاياته كانت من ذلك اللون من القصص الطويل الممل .. قصص مغامراته هو بالذات .. وكنا قد ضحكنا لها في الماضى ما يقرب من عشر مرات .. ومع ذلك فقد تركمنا هذه المرة ايضا، واستمعنا لها وضحكنا للمرة الحادية عشرة ..

كان السيد برتشل فى عداد المدعوين الى الوليمة وكان مولع اشد الولع بمشاهدة الالعاب والتسليات البريئة ، فكان يجمع الصبيان والبنات ويقوم معهم بلعبة « فتش عن الحذاء » وحيث ان اللعبة قديمة جدا ، او الذين يعرفونها قليلون ، فقد رأيت من الضرورى ان اصفها - : تجلس الجماعة اللاعبة على الارض في حلقة مستديرة ، باستثناء شخص واحد ، يخلع فردة حذاء ويسلمها للجماعة الجالسة ، ثم يتوسط الحلقة واقفا .. وفي هذه الاثناء يتنقل الحذاء بين ايدى اللاعبين من تحت الركب .. وهنا يحاول الواقف في الوسط « صاحب الحذاء » ان يعرف مكان حذاءه ليستعيده .. وبما انه من المتعذر على الشخص الواقف فى الوسط ان يواجه الجميع في وقت واحد . فان جمال اللعبة يبدو ، عندئذ في ضربه بكعب الحذاء على اجزاء جسمه ، بحيث لا يستطيع تماما الدفاع عن نفسه ..

هكذا كانت ابنتى الكبرى ، فى وسط الحلقة ، تقع عليها الضربات فتصرخ طالبة « العدل » في اللعب عندما دخلت السيدتان اللندنيتين

اللتان تعرفنا بهما مؤخرا ، وهما السيدة «بلارني» والانسة «كارولينا ويلهمينا امليا سكجز ·

عبثا احاول وصف ما اعترانا من الخجل والارتباك ، عند دخول هاتين السيدتين ··· لقد كان من العار علينا ان ترانا هاتين السيدتان المهذبتان في وضع زري مخز كهذا · ولكن لايخفى ان السيد فلامبورو نفسه ،رجل غير مثقف ·· سوقي ·· من عامة الناس ·· فليس غريبا ان لا تجد في بيته سوى الغلاظة والخشونة ·

وقد استحلنا جميعا احجارا صماء من جراء دهشتنا وحيرتنا ··

كانت السيدتان قد عرجتا على بيتنا لزيارتنا ·· ولما لم تجدانا فيه اسرعتا الى بيت السيد فلامبورو ··وعندما اخذتا مجلسهما ، شرعتا في الحديث واعربتا عن رغبتهما في ربط اواصر صداقة دائمة ، بينهما وبين ابنتي : اوليفيا وصوفيا ··

كانت الليدى بلارني مولعة ولعا خاصا باوليفيا ، اما الانسة كارولينا ويلهمينا امليا سكجز (التي احب ان اذكر اسمها بكامله) فقد مالت نفسها الى صوفيا واستلطفتها ، ثم استمدتا في الحديث بينهما فقط ·· بينما جلست ابنتاي صامتتان وهما اشد ماتكونا اعجابا بثقافتهما الرفيعة ·

وحيث ان القارىء يود ان يطلع على محادثة بين سيدتين من عليه القوم ، وعلى قصص اللوردات والامراء والسيدات وغيرهم من الشخصيات الكبيرة رأيت ان اسجل هنا ، خاتمة هذه المحادثة التي دارت بين هاتين السيدتين ··

رفعت الانسة سكجز صوتها قائلة : « ·· ان كل ما اعرفه عن القضية ،هو انها قد تكون صحيحة او غير صحيحة ، ولكن الشيء الذي استطيع ان اؤكده لك ، هو ان كل من كان في الغرفة قد اخذته الدهشة وتملكته الحيرة · فالدوق امتقع وجهه والدوقة أغمى عليها ·· اما السيد « تومكين » فما كان منه الا ان امتشق حسامه ··»

فاجابت الليدى بلارني : « ان ما استطيع ان اقوله ، هو ان الدوقة لم تعلمني عن امرها شيئا ·· ولااظن انها تخفي عني شيئا ··»

وارى لزاما علي في هذا الصدد ، ان اذكر سلوك السيد برتشل السيء الذي بدا منه اثناء المحادثة ·· فقد جلس متجها بوجهه نحو الموقد ، وفي نهاية

كل جملة يسمعها يصرخ قائلا « كلام فارغ » لا شك ان هذه العبارة قد استخطتنا وكدرت علينا صفونا اثناء الحديث ...

ثم تابعت الليدى بلارنى حديثها .« .. فضلا عن ذلك ، ياعزيزتى سكجز فان الدكتور «برودروك» لم يذكر شيئا من هذه القضية في قصيدته التى نظمها لهذا الغرض ..

ـ « كلام فارغ ! »

فأجابت الانسة سكجز : « ان هذا اليد هشنى حقا . الا يمكنك ايتها السيدة ان تتكرمى على بالقاء نظرة على هذه القصيدة ؟؟»

ـ كلام فارغ

فردت الليدى بلارنى : « اوتحسبين اننى احملها معى انى ذهبت ؟. فما اقل ما اقرأ هذه الايام ... اذ ان مرافقتى التى اقرؤها قد تركتنى لكى تتزوج .. وانا بعد حتى اليوم لم اجد « مرافقة » اخرى تحل محلها ، لانه ليس من اليسير العثور على واحدة لائقة ... هذا ، وان راتبا سنويا قدره ثلاثون جنيها ان هو الا راتب ضئيل بالنسبة الى فتاة مثقفة تستطيع ان تقراء وتكتب جيدا ، ولتسلك سلوكا حسنا ازاء جماعة من القوم الكرام .. اما من جهة البنات اللندنيات ، فانهن يجهلن آداب السلوك الحسن .. »

ـ كلام فارغ

فاجابتها الانسة سكجز قائلة :« انى اعلم هذا كله ، فقد كان عندى في النصف الاول من هذه السنة ، ثلاث مرافقات ، الاولى رفضت ان تصرف ساعة واحدة في الخياطة البسيطة ، كل يوم ... والثانية ، اعتبرت راتبها خمسة وعشرين جنيها في السنة ضئيلا جدا .. اما الثالثة والاخيرة ، فقد اضطررت الى صرفها من خدمتى من اجل سوء تدبيرها في البيت .. الفضيلة ياعزيزتى ، ليدى بلارنى ، فوق كل ثمن .. ولكن اين يمكننا ان نجدها في هذا العصر ...»

ـ كلام فارغ

كانت زوجتى تستمع بكل جوارحها الى هذه المحادثة التى دارت بين السيدتان .. لكن الجمل الاخيرة من المحادثة قد استرعت انتباهها بصورة خاصة . ـ «ثلاثون ليرة استرلينية » وخمسة وعشرون جنيها في السنة» جمعت المبلغ في عقلها .. ستا وخمسين ليرة استرلينية وخمسة شلنات . ـ ياله من مبلغ كبير .. كان مجرد تقدمة ومن اليسير الحصول عليه من قبل افراد عائلتنا ... فالتفتت الى ، تستقصى رأيى ، والحقيقة ان مركزين كهذين يناسبان ابنتى كل المناسبة ، ثم اذا كان السيد ثورنهل يحب ابنتى

«اوليفيا» حبا صادقا ، فان مركزها الجديد سيكسبها من المزايا والصفات اللازمة ما يجعلها اهلا لان تكون له زوجة ومديرة لشئون بيته الكبير ..

عندئذ ، سمعت زوجتي تقول للسيدتان : « ارجو المعذرة ، ايتها السيدتان ، ان قدمت اقتراحا بهذا الشأن . انى ارى ابنتى اهلا لان تكونا مرافقتين لكما .. وانه من الطبيعى ان ارغب في دفع ابنتى الى الامام في الحياة .. وانى آنس في نفسى الجراءة الكافية لاعلن لكما ، ان ابنتى قد نالتا نصيبا عظيما من الثقافة والمعرفة . واقل ما يقال فيهما ، ان الريف لم ينجب - بعد - بنات مثلهما .. وهما تقرآن وتكتبان جيدا . ولهما المام عظيم في مسك الحسابات المالية ، وهما ، ايضا متفننتان في الخياطة على انواعها ، وهما فضلا عن ذلك ملمتان باصول الموسيقى ، وتستطيع ابنتى الكبرى ان تنسخ نماذج عن ورق الصحف ، واما ابنتى الصغرى ، فحاذقة جدا في قراءة الخط على ورق اللعب ..»

- كلام فارغ

كان هذا الخطاب قطعة رائعة من حسن البيان وطلاقة اللسان بالنسبة لزوجتى . والحق اقول ، انى لم اسمعها قط - فيما مضى - تتكلم بمثل هذه البلاغة والفصاحة ..

تباحثت السيدتان بعضهما الى بعض مدة دقائق قليلة ، بشيء من الريبة والاهتمام واخيرا ، قالت الانسة سكجز ، ان بالنظر الى المعرفة السطحية التى تمت بينهما وبيننا ، ترى ان الانستان تصلحان لمثل هذا العمل ، ثم وجهت الخطاب الى زوجتى قائلة . « ان مسألة على جانب كبير من الاهمية كهذه المسألة ، تتطلب الحذر والتبصر قبل الاقدام على اتخاذ قرار مستعجل فالقضية تقتضى الكشف عن اخلاقها كشفا دقيقا ، - وهذا لا يعنى ، يا سيدتى ، انى اشك في فضائل الانستان او في ادراكهما ، لكنى خلقت هكذا : حذرة بالطبيعة ..»

فاظهرت زوجتى موافقتها على حذر الانسة سكجز حتى استحال حذرها ، بعد ذلك الى ريبة وظن ، ولما قالت ان الجيران جميعا ، يمكنهم الاجابة على كل استعلام بخصوص اخلاق ابنتى ، التفتت اليها السيدة وقالت ، انها لا ترى ما يدعو الى ذلك على الاطلاق ، فشهادة ابن عمها السيد ثورنهل تكفى .

عندما عدنا ادراجنا الى البيت صرفنا ليلتنا في وضع خطط ومشاريع لمستقبل يكتب لنا فيه النصر ٠٠ وكانت دبوره ( زوجتى ) كثيرة المشاريع ، كثيرة الكلام تقضى الليل كله في الثرثرة في الموضوع الواحد ٠٠٠ حتى انها في تلك الليلة بالذات ، ايقظتنى ـ وكنت اغط في سبات عميق ـ لتقول لى: « حسنا ، اى عزيزى شارل ، اظن اننا قمنا بعمل مجيد هذا اليوم ٠» فاجبتها دون ان ادرى ما اقول : « اجل ٠٠ لا بأس به »

فصرخت كالملسوعة : « ماذا تقول ٠٠ لا «بأس به» فحسب ؟ اظن ان العمل كان عظيما جدا هب ان ابنتينا تتعرفان باصحاب الذوق السليم فى لندن ٠٠ واؤكد لك ان لندن هى المكان الوحيد في العالم ، الذى يوجد فيه من الازواج من كل جنس ولون ٠ فان كانت السيدتان الراقيتان قد ابدتا اعجابهما بابنتى ٠٠ فماذا يكون شان الرجال معهما ؟٠ اسمع انى اكن للبدى بلارنى حبا عظيما ، انها سيدة كريمة ، حقا ٠ مع ذلك ، فان بين ضلوع الانسة كارولينا ويلهمينا امليا سكجز ، يكمن قلبا كبيرا حارا كقلبى ٠٠٠ ولكن عندما شرعتا فى الحديث عن العثور على «مرافقتين» لهما في لندن ، لم البث ان انتهزت الفرصة اياها ٠٠ والان قل لى ياعزيزى . الم احسن الى ابنتى في ذلك ؟؟»

فاجبتها ، دون ان اعى وافكر فى المسالة على الاطلاق : « اجل ! وادعو الله عز وجل ، ان يجعلهما اكثر اهلية واستعدادا لهذا العمل بعد ثلاثة اشهر من الان ٠٠٠ »

كانت هذه العبارة ، واحدة بين اشياء كثيرة اعتدت ان اقولها لزوجتى لاؤثر بها على عقلها ، فتسمو في حكمتى ونفسى ٠٠ حتى اذا ما كتب لهما النجاح ، تكون ملاحظتى ، عبارة عن أمنية دينية قد تحققت ، كان السماء قد استجابت لدعائى ٠٠ ولكن اذا وقع شىء مكروه ، فان ملاحظتى تكون ـ عندئذ ـ بمثابة نبؤة ٠٠ ففى كلتا الحالتين يجب ان تتأثر زوجتى : اما بدينى وتقواى او بقدرتى على التنبوء

لم تكن هذه المحادثة سوى تمهيد لمشروع اخر من مشاريع زوجتى ٠٠ فقالت ،« بما انه صار بالامكان ان نرفع رؤوسنا عاليا ـ ولو قليلا ـ في العالم٠ ارى انه من الافضل ، نبيع الحصان القديم في السوق المجاورة ، ونبتاع حصانا تستطيع الابنتان امتطاءه ، فتظهران عليه بمظهر لائق جميل ، وهما

في طريقهما الى الكنيسة ، او اثنـاء قيامهما ببعض الزيارات ..

عارضت هذا المشروع معارضـة شديدة ، لكن الدفاع عنه كان اشد واقوى وكلما وهنت في دفاعي ، كلما ازدادت قوة خصمي . واخيرا ، تقرر - نهائيـا - التخلص من الحصان القديم ...

كان مقررا ان تعقد سوق ( حراج ) عامة في اليوم التـالى .. فعزمت ان اذهب بنفسي الى السوق ، لكن زوجتي اقنعتني بالعدول عن ذلك لسبب الزكام الذي كنت اكابده انئذ ، لذلك لم استطيع حملها على التسليم بما عزمت الامر عليه والادغان لي ، عندئذ التفتت الى زوجتي ، وقالت :

« اسمع يا عزيزي ، ان ولدنـا موسى - كما تعلم - ذكي وماهر في البيع والشراء مع الربح الجزيل ! .. فهو يجادل ويساوم الباعة والمشترين حتى يتعبهم ويفلح هو !.. »

لقد كان لي رأي خاص في ابني موسى وفي تحفظه ، وذلك ما جعلني اسلم بقيامه بهذه المهمة .

وفي صباح اليوم التـالى ، رأيت اختيه منهمكتين في اعداد اسباب سفره الى السوق العامة ، فكانت واحدة تقص له شعره ، والثانية تنظف ثيابه ، ثم ، ما عتم ان امتطى الحصان واضعا امامه صندوقا خشبيا ، لكي يضع فيـه مشترياته عند اوبته ، ثم شيعنـاه على بعد عدة خطوات من البـاب ، داعين له بالتوفيق ، حتى غاب عـن الانظار ..

ما كاد يمر طويل وقت على ذهاب ابننا موسى ، حتى جاءنا احدى خدم السيد ثورنهل ومعه بطاقة موجهـة الى ابنتي ، مفادها ، ان السيدتين قد تلقتا تقريرا سارا من السيد ثورنهل ، عن كل فرد منا وانهما تأمـلان الحصول على القناعة التامة ، بعـد اجراء بعض التحقيقات بهذا الشأن . فهتفت زوجتي « آه ! اني لارى الان ، انه ليس من السهل على الانسان الولوج الى قصور العظماء ، ولكـن ، متى كتب ذلك ، يمكنه ان ينام ملء جفنيه ! »

فوافقت الابنتان على هذه « النظرة » من امهما بقهقهة عالية ، تنم عن الفرح والسرور كذلك كان فرح زوجتـي عظيما ، حتى انها وضعت يدها في جيبها واخرجت اربعة بنسات ونصف كانت كل ما في جيبها ، واعطتهـا للخادم !!

اما الشخص الثانى الذى جاءنا فهو السيد برتشل .. جاءنا من السوق يحمل قطعتين من الحلوى من ذوات البنس الواحد، وقدمهما للصغيرين دك وبل ، وعلبتين لابنتى : اوليفيا وصوفيا ، لكى تضعا فيهما بعض الادوات الصغيرة والنقود ..

ما زلنا نشعر بشىء من الاحترام للسيد برتشل ، فعلى الرغم من السلوك الفظ ، الذى بدى منه مؤخرا، وعلى الرغم من سخطنا عليه جميعا .. فاننا نحس بجاذب الصداقة والشفقة نحوه !..

عندما نطلع صديقا او قريبا ما يتجاذبنا من هموم الحياة ومضايقاتها نحس باشتراكه معنا في عواطفه ومشاعره واذ يقاسمنا احزاننا والامنا ، نشعر بخفة وطأتها .. وعندما نشركه في افراحنا تزداد اسباب السعادة والهناء !.. فترى علامات السعادة بادية على صفحة وجهه كانه مرآة تعكس ما يعتلج في باطنه !.. وهكذا بالاشتراك ، تخف الهموم والاحزان وتزداد الافراح والمسرات !..

وهكذا اشركنا السيد برتشل افراحنا وطلبنا مشورته في الامر ...

ولما اطلع على الرسالة الواردة من السيدتين ، هز رأسه استنكارا ،وقدم ملاحظته قائلا : «ان مسألة من هذا النوع ، تتطلب الكثير من الحذر والتبصر !»

اسخط هذا الاحجام والتهيب زوجتى ، فالتفتت اليه تقول ، «انك في كل مرة تقف موقف المعاكس ، سواء كان منى او من ابنتى !» ثم اردفت بصوت عال «.. انك متطرف في حذرك اكثر مما يجب !.. لذلك ، عندما احتاج يوما الى نصيحة ، فساطلبها من اولئك الذين استطاعوا ان يفيدوا انفسهم من النصائح !»

فدافع السيد برتشل عن نفسه قائلا : «ان تصرفي الخاص وما يمكن ان يكون عليه لا يمت بموضوع حديثنا - الآن - باية صلة على الاطلاق !.. هذا، وانى وان كنت لم افد من النصائح التى اسدت الى ، الا انى ارى انه من اوجب واجباتى ان اسديها خالصة لمن ينتصحون بها !!

كنت اخشى ان يثير جواب السيد برتشل غضب زوجتى فتشتمه ! - وكما تكون الحال - احيانا - مع احسن الناس اخلاقا .. فانهم يشتمون ويتلفظون باغلظ السباب وادناها، تحت تاثير الغضب ، ثم يندمون بعد زواله لذلك ، غيرت مجرى الحديث متسائلا : «ترى ما الذى اخر ولدنا

موسى كل هذا الوقت في السوق ؟!ان الشمس على وشك الغروب ... والليل قد تقارب !! »

فصرخت زوجتي للحال : « لا تخشى على ابننا موسى ! .. فهو يعرف ما يعمل ... فقد رأيته مرة يقوم بصفقات ، لو رأيتها انت لادهشتك ! ... وساروى لكم قصة ، تنفلق لها جوانبكم .. من الضحك .. ولكن !. من ذا الذى ارى ؟ ! ها هو ذا موسى قادم بدون حصان ، والصندوق على ظهره !»

بينما كانت زوجتى تتكلم ، كان موسى يتقدم الينا متثاقل الخطى ، والعرق يتصبب من جسمه تحت تاثير ثقل الصندوق الخشبى المحزوم حول كتفيه بحزامين جلديين طويلين ...

فهتفت زوجتى : « اهلا وسهلا بموسى ! اى بنى ، ماذا احضرت لنا معك من السوق ؟!»

ـ لم احضر سوى «نفسى!» قال هذا ، وهو يضع الصندوق على الطاولة ، ويرمينا بنظرة خبيثة ! .. ثم صرخت زوجتى :

«نعم هذا نعرفه ، ولكن اين الحصان ؟!»

ـ لقد بعته ... بثلاث جنيهات وخمس شلنات وبنسين !»

ـ حسنا فعلت ، ايها الولد الصالح! انى كنت اعلم انك ستتفوق عليهم بدهائك وسعة احتيالك !.. ان السعر لعظيم جدا ... فهات الدراهم!»

فرد موسى قائلا : «لم احضر معى دراهم ... لانى ابتعت بها هذه الصفقة !»

حينئذ ، مد يده الى صدره واخرج رزمة وكانت ملفوفة لفا محكما ، وقال :

«هاكم الصفقة ـ اثنتى عشرة دزينة من النظارات الخضراء ضمن اطر من فضة واغلفة من الجلد ! ..»

فقالت زوجتى ، وكانها تقرأ جمله فى كتاب : «اثنتا عشرة دزينة من النظارات الخضراء ! ـ لقد بعت الحصان ولم تحضر لنا معك سوى اثنتى عشرة دزينة من النظارات الخضراء ... التافهة !!»

فصرخ موسى في وجهها ، قائلا : «اماه . لماذا لا تستمعين لوحى العقل ؟

لقد جئتك بصفقة سنية ورابحة جدا ،والا لما اقدمت على ابتياعها ! ان الاطر الفضية وحدها تساوى ضعف ثمن النظارات !..»

فاستشاطت زوجتى غضبا، وقالت«اطر فضية ! ... لن تباع هذه الاطر باكثر من نصف ثمنها الاصلـــى ،لاعتبارها «فضة مسحوقة» ، اى بنحو خمس شلنات للاوقية الواحدة ! ـ اوما يعادل ستين شلنا للرطل الواحد!!»

فقلت لزوجتى : «لست بحاجة لان تبيعى الاطر ، ياعزيزتى ، اوان تفكرى في بيعها !... فقيمتها لاتتعـــدى الست بنسات ، لانها مصنوعة مـــن نحاس اصفر او احمر ، او من مـــادة شبيهة بذلك ومموهة بالفضة .. امـــا المادة المصنوعة منها الاغلفة ، فهـــى، بالحق ، من الجلد !...»

فندت عن زوجتى صيحـة وقالت : «ماذا ؟ .. ليست من فضة ؟! اتقول ان الاطر ليست من فضة ؟!

ـ «اجل ! .. ليست الاطر من فضه، الا اذا كانت اوانى الطبخ النحاسيـة من فضة !!»

فاردفت قائلة : «هكـــذا ، اذن ، تخلصنا من الحصان لكى نحصل بدلا منه على «دستة» من النظارات الخضراء في اطر نحاسية واغلفة من جلـــد !! لقد خدع الولد ! لعنه الله من غـــر احمق !! ياتيتنى بمادة تافهة كهذه .. فلو كانت بحوزتى الآن ، لجعلتهـــا طعاما للنار »

فقلت لها : «انك لعلى خطأ ، يـــاعزيزتى ، فسنحتفظ بها ، وان كانت من نحاس احمر ، فهى خير من لا شيء على الاطلاق !!»

ان موسى «المنحوس» قـــد صدق النصح هذه المرة ... فقـد لاحظ ان رجلا غشاشا قد احتال عليه ، ومـــا اكثر المحتالين الذين يجعلون مـــن «السوق العامة» مصدر رزق لهـــم فقد رأى هذا المحتال ولدنا موسى فى زى ريفى ، فرأى فيه فريسة يسهل عليه افتراسها ـ تماما كمـــا يبحث الاسد عن نعجة عاجزة لافتراسها !..

لقد باع الحصان ـ على حد قوله ـ وراح يمشى في السوق ، باحثا عـــن حصان آخر ليشتريه ... وفيمـــا هو كذلك ، اذ برجل تعلو محياه سيما الوقار وينم ظاهره عن شخصيـــة جديرة بالتقدير والاحترام ، يقتاده الى خيمة قريبة ، ويقول له ان عنـــده حصانا يود ان يبيعه .. ويتابع موسى كلامه قائلا :

«.. وهنا قابلنا رجـــلا حسن الهندام ، يطلب قرضا قدره عشرين ليرة ويستودع ـ مقابـــل ذلك ـ اربعـا وعشريـــن دزينـــة مـــن النظارات ، كتأمين على المبلغ وضمانا له .. ثم قال ، انه بحاجة ماســة الى المال ، لذلك ، لا يرى غضاضـــة في التخلص من النظارات ، حتى ولـو بثلث قيمتها الاصلية ! .. عندئـذ التفت الى الرجل الاول ـ الذى ادعى صداقتى ـ وهمس في اذنى ان اشتريها .. وحذرنى من ان اضيع صفقـة كهذه ، ... فاستدعيت السيـــد فلامبورو ، فخدعاه ـ كما فعلوا معى ـ وهكذا اتفقنا على شراء هذه النظارات واقتسامها بينى وبينه بالتساوى !»

## ـ ١٢ ـ

لقد بذلت العائلة قصارى جهدهـا من اجل تحسين وضعها الاجتماعـى ، نوعا ما ، لكن مساعيها باءت جميعهـا بالفشل ! ... فحاولت ان افيد مـن كل اخفاقة لعلى اعلم اولادى واهذب ادراكهم ، فقلت لهم : «لقد رأيتـــم ايها الاولاد الاحباء ، ما اقل مـا افدنا من محاولاتنا الكثيرة فى ان نظهر بمظهر افضل مما نحن عليـــه الان ... ان الفقراء الذين لا يعاشرون الا اهـــل المال والثراء ، يمقتهم الفقراء امثالهم ويعرضـــون عنهـــم ، ويحتقرهم الاغنياء الذين يرافقونهم !»

ثم حكيت لهم قصة «العملاق والقزم» لكى اجعل من مغزاها الادبى اثرا عميقا في نفوسهم .. ولما اشرفت القصة على النهاية ، استلفت انتباهى جدال عنيف بين زوجتى والسيد برتشل .. فقـد كانا يتجادلان حول زيارة لندن التـى عزمت ابنتاى على القيام بها .. وكاد الحوار يتطور الى نزاع ! فكانـــت زوجتى تصر اصرارا لا هوادة فيـــه مؤكدة ان الفوائد التى ستجنيهـــا ابنتيها من هذه الزيارة ستكون كبيرة جدا .. بينما كان السيد برتشـــل يحاول اقناعها بالعدول عن ذلك ... اما انا ، فلم انطق برأى ما ، اذ اكتفيت بالنظر اليهما عن بعد !.. ثم اشتـــد الحوار وحمى وطيسه بينهما ، وبدلا من ان تحاج زوجتى وتناقش السيـد برتشل استنادا الى العقل والمنطق ، كان صوتها يزداد قوة وارتفاعا ، وكـــان لكلامها صدى سيء فى نفوسنـــا جميعا ومما قالته له : «اعرف اناسـا ينصحون غيرهم لاسباب سرية مكتومة عندهم ، لذلك ، اود لو ان امثال هؤلاء الناس ينصرفون عن بيتى ولا يعودون اليه في مستقبل الايام ..

فاجابها السيد برتشل بهدوء كاديزيدها اشتعالا : «انك على حق ، يا سيدتى في الاشارة الى الاسرار المكنونة ذلك لانى اكتم اسرارا لا اريد ان ابوح لك بها ، لانك عاجزة حتى عن الاجابة عن التى « ليست مكتومة » ويظهران زياراتى اصبحت مضايقة لكم ، لذلك، استأذنكم الان بالانصراف ، ولربما زرتكم للمرة الاخيرة في المستقبل لاودعكم الوداع الاخير قبل هجرتى للبلاد ـ لانى عازم على مغادرة انكلترا في القريب العاجل !» قال السيد برتشل ذلك ، ثم تناول قلنسوته وخرج ! .. على الرغم من نظرات صوفيا الحزينة وتبكيتها له على تسرعه وبذلها كل محاولة لمنعه من الخروج من البيت ...

ولما ذهب السيد برتشل، نظر كل منا الى الاخر بشيء من الحيرة والارتباك مدة دقائق ، لكن زوجتى اذ ادركت انها كانت السبب في ذلك كله، حاولت ـ جاهدة ـ ان تخفى ندامتها وراء ابتسامة مصطنعة ، وثقة فى النفس ظاهرة ! ... فلم اتمالك نفسى من الانحاء عليها باللائمة على فظاظتها وخشونتها ! .. وصرخت بها :

«اهكذا نعامل الغرباء ؟ ايتها المرأة ؟! ابمثل هذا نقابل لطفهم وكرمهم ؟ ان الالفاظ التى تفوهت بها، هى في نظرى اقسى واعنف واسوأ من كل ما نطقت به شفتاك حتى الان !!»

فاجابت قائلة : «لماذا ، اذن ، اغضبنى واثار في كوامن غيظى وسخطى ؟! انى اعرف الغاية من اعطائه تلك النصيحة لى !.. ان هدفه واضح تماما ! وما هذا الهدف سوى الحيلولة دون ذهاب ابنتى الى لندن ، لكى يتسنى له التمتع بفرصة الاجتماع بها هنا في بيتها !.. ولكن ، مهما حدث ، فانها سوف تختار رفاقها من هؤلاء الادنياء ، امثال السيد برتشل !!

فصرخت بها : «ماذا تدعينه ؟! اتدعينه «دنيئا» ؟ ! قد نكون مخطئين في تقدير اخلاق هذا الرجل ، لانه كان يبدو ، في اغلب الاحيان ، من اكمل من عرفت بين الرجال اخلاقا في حياتى !!» ثم التفت الى صوفيا سائلا :

«اخبرينى ، يا عزيزتى صوفيا ،هل كشف السيد برتشل سرا عن حبه لك او شغفه بك ؟»

فاجابت بسرعة قائلة : «ان حديثه معى ، يا سيدى ، لم يتعدى حدود

الادب والادراك الصحيح ! وكـــل ما عدى ذلك ، ليس له اى اساس من الصحة ! لكننى اذكر انى سمعته مرة يقول ، انه ما عرف امرأة واحدة قط ، استطاعت ان تجد استحقاقا في رجل يبدو فقيرا معوزا !»

فقلت لابنتى : «هكذا يكون حديث الكسالى والتعساء من العوام ، يـــا ابنتى وارجو ان تكونى قـــد تعلمت كيف تحكمين على مثل هؤلاء الرجال ، وانه لمن الجنون ان تتوقع المـــرأة السعادة من رجل متهور ، لم يسوس اسباب سعادته كما ينبغى ! .. اننى ، انا وامك ، نطمح الى مستقبل افضـل لك : واننا نتوقع امالا افضل بزواجك ... واذا قدر لك ان تصرفي الشتـاء القادم في لندن ، فتمنحـــين فرص تستطيعين فيها ان تبنـــى اختيارك لشريك حياتك المقبل ، عـلى اساس من الحكمة والروية !..»

تضاربت افكار شتى في عقل صوفيا في هذه المناسبة ، لا استطيع لها فهما ! لكننى لم اكن جد مستاء لتخلصنا من من ضيف كنت اخشاه وارهب جانبه !

— ١٣ —

**واخيرا** ، عقدنا النية على ان تسافر ابنتاى ، اوليفيا وصوفيا ، الى لندن .. وقد تفضل السيد ثورنهل ووعدنـــا بمراقبة سلوكهما ومكاتبتنا عـــن سير حياتهما ...

عندئذ رأينا ان من الضرورة اللازمة ان نجهزهما بالالبسة الفاخرة ، التى لا غنى عنها لكل من يختلط بين علية القوم من سيدات ورجال . ولما كانت هذه الملابس ستكلفنا غاليا جدا ، فقد دعوت العائلة الى عقد اجتماع نتدبـر فيه اسهل الطرق لجمع المال اللازم ، ولبيع ما يمكن بيعه من مقتنيات البيت التى يمكننا الاستغناء عنها ، لجمـــع ما نحتاج اليه من الدراهم لهـــذه الغاية ...

لم يدم النقاش طويلا ، فقد رؤى ان الحصان الباقى عندنا لم يعد ينفـــع لجر المحراث بمفرده ... لان تربة حقلنا الصلبة تتطلب ضرورة وجـــود حصانين لجر المحراث عليها وجعلهـــا صالحة للبذار ... هذا من جهـــة ، ومن جهة ثانية ، فان الحصان هذا ، غير لائق للركوب عليه في الطريق العامة ، لانه اعور ... بعين واحدة ... لذلك عزمنا على ان اذهب بنفسى الى السوق وابيع الحصان بالسعر المناسب !..

ومع ان هذه «الصفقة» هي الاولى من نوعها (اذ لم سبق ان قمت بعمل تجارى قط في سنى حياتى) مع ذلك ، لم اشك في قدرتى على القيام بها بنجاح تام ! ... لاننى قد كونت لنفسى خبرة واسعة ورأيا مقبولا فى دائرة معرفتى العامة !.. مع ذلك ، لما ابتعدت ، في صباح اليوم التالى ، عدة خطوات عن باب بيتى ، صرخت لى زوجتى واشارت على ، ان «كن حذرا متيقظا !»

عندما اتيت السوق العامة ، عرضت الحصان للبيع ... ممتحنا عود خطواته ، حينا ، ومختبرا قدرته على السير والركض ، حينا اخر ! .. ومر وقت طويل ، دون ان ارى زبونا واحدا...

واخيرا ، تقدم احدهم وفحص الحصان برهة طويلة ، واذ رآه اعور ، مضى في سبيله دون ان ينبس !.. كنت في مكان من السوق مزدحم بعدد جم من الذاهبين والآيبين ... فسرعان ما طلع على زبون ثان ، وبعد فحصه للحصان فحصا دقيقا ، وجد تورما في ساقه ، فقال ، بصريح العبارة ، انه لا يرضى به ولو هدية !! ثم تقدم زبون ثالث ، فلاحظ تضخما في مفصل القدم ، فلم يعرض اى ثمن فيه ! ..واخيرا جاءنى زبون رابع وفحص الحصان ، ثم قال : انه مصاب بمرض مزمن بجانب عينه ! ... وخامسا ابدى استغرابه من وجودى في السوق ومعى حصان «اعور» ومريض لا يصلح لشيء الا لذبحه وتوزيع لحمه على الكلاب !!

وهنا .. بدأت اشعر باحتقار شديد نحو الحيوان المسكين ، حتى كدت احس بالخجل عند اقتراب احد «الزبائن» نحوى !.. ومع انى لم اصدق تماما كل ما قاله الرجال فى الحصان ، الا انى فكرت في نفسى قائلا «حيث ان شهودا عديدين قد اتفقوا على رأى واحد بشأنه . فانه من المحتمل ان يكونوا محقين في رأيهم !.»

كنت على هذا الحال من «البؤس» ، عندما رأيت «أخ» لى من الكهنة واحد المعارف القدماء ، قاصدا السوق ، لقضاء حاجة «تتعلق باعماله الخاصة»! ... اقترب منى ، ثم صافحنى ، وبعد قليل ، طلب الى ان نذهب معا ، الى فندق «النادى الشعبى» نتناول كأسا من النبيذ ... فرضيت بذلك في الحال ، ثم دخلنا فندقا شعبيا ، فاقتادنى مرافقى (الكاهن) الى غرفة صغيرة خلفية ، راينا فيها رجلا شيخا ، منصبا بكليته على مطالعة كتاب امامه ..

امتلأت نفسي رهبة واحتراما لدى رؤيتي لهذا الشيخ !.. والحق اقول انه لم يقع نظري ـ قبل الان ـ على شخص مهيب ، جدير بالتوقير والاحترام ، كهذا الشخص كان شعره الاشيب الفضي يغطي جبينه الوقور.. ورغم شيخوخته هذه ، فقد كان يبدو نشيطا ، باشا ، نتيجة اعمال الخير والاحسان في سني حياته ، والتمتع باسباب الراحة والهناء !. وعلى كل حال ، فان وجوده الى جانبنا في الغرفة لم يعق سير حديثي مع الزميل القديم ... وقد جئنا على ذكر تقلبات القدر التي اختبرناها ، وعلى بعض الامور الكهنوتية ، ثم انتقلنا الى الحديث عن كتابي الاخير ، والموضوع الذي كتب من اجله ... والرد عليه الخ .

حينئذ ، لفت نظرنا شاب دخل غرفتنا وتكلم الى الشيخ الغريب بكل وقار واحتشام ، وبصوت عذب رقيق ، قال في ختام كلامه : «... يؤسفني ان ازعجكم ، يا سيدي ، واني استميحكم عذرا عن هذا العمل!»

فقال الشيخ : «العفو يا بني ! .. ان البر والاحسان واجب علينا نحو جميع البشر ... خذ هذا ، وحبذا لو استطيع مساعدتك بمبلغ اكبر ، وانما خمس ليرات استرلينية قد تخفف عنك وطأة الضيق الذي تكابده ! .. تفضل ، خذها .. واهلا وسهلا بك!»

اغرورقت عينا الشاب الحيي بالدموع ، شكرا وامتنانا !... اما انا ، فلم اكن اقل منه اقرارا بالفضل واعترافا بالجميل ، ووددت لو استطيع ان اطبع على الرجل الشيخ قبلة التقدير والاحترام ، من شدة ابتهاجي باحسانه العظيم !!

استأنف الشيخ قراءته وعدنا نحن الى حديثنا ... واذ تذكر زميلي واجب انجاز عمل له في السوق ، استأذنني بالانصراف ، واعدا بالعودة الى سريعا ، ـ ثم اضاف على ذلك بقوله انه كان دائما شديد الرغبة في الاجتماع بالسيد «برمروز» مدة طويلة !..

لما وقع ذكر اسمي على سمع السيد الشيخ ، رفع هذا نظره الى ورمقني باهتمام بالغ برهة من الزمن ، ولما مضى زميلي في سبيله ، سألني بكل تأدب واحترام ، ان كانت تمت صلة تربطني بالسيد برمروز «العظيم» الشجاع ، وحامي حمى الكنيسة ، والذي يؤيد الرأي القائل ، ان رجل الدين ينبغي ان لا يتزوج اكثر من امرأة واحدة فقط ؟!

لم يحس قلبي بسعادة اصدق واحق ، في ماضي حياته ، احساسه بها في اللحظة التي سمع بها هذه العبارة !! وان سروره بلقائي ، بدا ،

فعلا ، حقيقيا خالصا ! ... حينئذ اجبته : «انه ليسعدني ، يا سيدى ، ان اتقبل الثناء من رجل صالح مثلك ! .. وانك لتشاهد الدكتور برمروز الذى سررت بان تلقبه «بالرجل العظيم» ماثلا امامك !»

فصرخ الشيخ قائلا : «كنت فضوليا جدا ، يا سيدى ، لرغبتى في التيقن من كونك «السيد برمروز» حقا! والان ارجو التكرم بقبول اعتذارى عن فضولى هذا !»

فامسكت يده، قائلا «انك ابعد ما تكون عن الاساءة الى ، يا سيدى ، وارجو ان تتفضل بقبول صداقتى !..»

فاجاب ويده، ما زالت في يدى ، «انى اتقبل صداقتك شاكرا ، يا سيدى ، كيف لا وانت الدعامة العظمى لهذا الدين المكين ؟؟ وانى لا ارى ...

هنا ، قطعت عليه الكلام ، لانى وان كنت استطيع ، بوصفى «كاتبا» ان اتقبل المداهنة والمديح، الا ان آداب الحشمة والتواضع ، لا تسمح لى باكثر مما سمحت به انا لنفسى ... على كل حال ، فقد نتج عن هذه المقابلة القصيرة ، صداقة ، اسرع بكثير من اى صداقة قامت بين العشاق في الروايا ت والقصص الخيالية !

تحدثنا في مواضيع شتى ... واشرت في سياق حديثى الى ان الناس قد فقدوا اهتمامهم بالامور الدينية، ثم تكلم هو عن خلق العالم ، مستشهدا بآراء الكتاب اللاتين والاغريق القدماء، لدعم آراءه بهذا الخصوص !.. ثم خاطبنى قائلا :

«انك تتحدث عن خلق العالم ، يا سيدى ، اليس كذلك ؟.. ان العالم قد شاخ !.. اما «كيفية» خلقه، فقد بقى سرا غامضا ، استعصى اكتناه حقيقته على الفلاسفة في كل عصر وجيل !!»

استمر هكذا في حديثه عن العالم، لكنه لم يشر بالتدقيق الى الموضوع الذى كنت اتكلم فيه ... على ان ما قاله بهذا الصدد ، كان برهانا كافيا على كونه عالما ، — بل عالما متبحرا في العلم والمعرفة ، مما زاد فى احترامى وتقديرى له ! .

فعقدت النية على امتحان معرفته في ميدان الجدل ، لكنه كان من الوداعة ودماثة الخلق ، بحيث ابت عليه نفسه محاولة الانتصار على في هذا المضمار ! ! فكان ، كلما ذكرت مسألة تحتاج الى الاجابة عليها ، يبتسم ثم

يهز رأسه ولا يقول شيئا على الاطلاق! مما جعلني ادرك ، ادراكا تاما ، مقدرته على الكلام كثيرا ، اذا ما رأى داعيا لذلك ! .. وبطريقة لا شعورية تحول مجرى الحديث ، من المواضيع الدينية الى الكلام عن الغاية التى من اجلها جئنا ـ انا وهو ـ الى السوق ، نعم ، تحول مجرى الحديث دون ان الاحظ ذلك ، فعلا ! فاخبرته ان غايتى من ذلك هى بيع حصان لى .. والغريب في الامر ـ بل لحسن الحظ ـ لم يأت هو الى السوق الا ليبتاع حصانا !

وفي الحال قدمت له الحصان واتفقنا على الثمن !

وما بقى عليه الان ، سوى دفع القيمة ... فمد يده الى جيب معطفه ، واخرج ورقة مالية من فئة الثلاثين ليرة استرلينية ، وطلب الى تحويلها الى ذهب .. ولما كنت عاجزا عن القيام بذلك ، استدعى خادمه ، فجاء في الحال رجل انيق الملبس ، حسن الهندام ، فصرخ به سيده قائلا :

«خذ هذه الورقة المالية ، يا ابراهيم ، وحولها ذهبا ؟ يمكنك تحويلها في محل جارنا ، السيد جاكسون ، او في اى مكان اخر !...»

بينما كان الخادم غائبا ، الهانى بحديث شجى ، عن ندرة العملة الفضية في الاسواق ، فاجبته ـ آسفا ـ عن ندرة وجود الذهب ، ايضا ! .. وفي الوقت الذى عاد فيه ابراهيم ، كنا قد اتفقنا في الرأى ، على انه لم يمر وقت على البلاد ، تعذر فيه الحصول على المال ، كما هو الحال في الوقت الحاضر ! ..

عاد ابراهيم ليعلمنا بانه سال كل صيرفي في السوق فلم يجد من يستطيع تبديل الورقة المالية ذهبا ! مع انه عرض ، لقاء ذلك ، نصف ريال (شلنان ونصف) ! ... فكانت خيبة امل مريره بالنسبة لنا جميعا ! لكن الشيخ سألنى ـ بعد برهة من التفكير قصيرة ـ فيما اذا كانت لى معرفة بشخص اسمه «سام فلامبورو» يقيم في مكان ما من الريف ، الذى اقيم فيه انا ؟! فاجبته بان الرجل يقطن في بيت قريب جدا لبيتى ، فقال الشيخ :

«اذا كان الامر كذلك ، اعتقد باننا نستطيع اتمام الصفقة ... وساعطيك «سحب» (حوالة مالية) على السيد فلامبورو ، وحالما تبرز له ورقتى يعطيك المبلغ المتفق عليه ... واسمح لى ان اقول لك ، ان السيد فلامبورو رجل لا يقل طيبة عن اى رجل في دائرة قطرها خمسة اميال ! .. وهو صديقى منذ سنوات عدة !!»

ان سحب حوالة مالية على جارى وصديقى ، هى بمثابة مال مضمون

لجيبى ، لانى كنت مقتنعا بقدرته على الدفع !... عندئذ ، كتب السيد جنكنسون الحوالة وذيلها بتوقيعه ، ثم تسلم الحصان وذهب به هو وخادمه ابراهيم وكل منهما راض عن نفسه تمام الرضى !.

وبعد فترة قصيرة من التأمل والتفكير اخذت ادرك الخطأ الذى ارتكبته باستلامى حوالة مالية من شخص غريب لا اعرفه ! .. فعزمت ، عن ترو وحذر ان الحق بالمشترى واستعيد منه الحصان ... لكنى لم اعثر على احد ، وقد فات الوقت ! واسقط في يدى ! عندئذ يممت وجهى شطر منزلى ... عازما على تبديل الحوالة بالدراهم ، في بيت صديقى السيد فلامبورو باسرع وقت ممكن !! وعندوصولى ، رأيته واقفا عند باب بيته يدخن البيبة !.. فاطلعته على الحوالة الصغيرة المسحوبة عليه ... فقرأها مرة ومرتين ... فقلت له : «اظن انك تستطيع ان تقرأ الاسم : ـ افرام جنكسون ؟! » فقال : « نعم ! .. ان الاسم واضح تماما ... وانى اعرف هذا «السيد» ! اعرفه جيدا ... اكبر وغد محتا لعلى وجه الارض ! وهو اكبر من عرف بالغش والخداع !انه الرجل المخاتل نفسه الذى بأعنا النظارات ! ... الم يبد لك رجلا اهلا بالتجلة والاحترام ، ذو شعر أشيب ، تاركا جيوب سترته بدون «اغطية» ؟؟ او لم يحدثك طويلا عن رجال العلم والادب الاغريق ، وعن خلق العالم ؟؟!

عندئذ ، افلتت من بين شفتى انة كان لها وقع شديد على اذن صديقى ، فرفع عينيه ونظر الى نظرة عطف واشفاق ، ثم اردف : « .. نعم ، لا يعرف من علوم الدنيا سوى ذلك «المقطع» الذى حدثك به ! ويتحدث به حيثما وجد نفسه بصحبة رجل عالم !... لكنى اعرف هذا الوغد ، ولا بد من ان يأتى يوم القى فيه القبض عليه !! »

مع ان الخجل من نفسى كان قد غمرنى بما فيه الكفاية ، الا ان «الجهاد الاكبر» كان في مواجهة زوجتى وابنتى !! وكما يخشى الولد الشرير العودة الى المدرسة خوفا من رؤية وجه معلمه الغضوب ... هكذا كنت اخشى العودة الى البيت !!

ولكن ، واسفاه ؟ ـ لما دخلت البيت وجدت العائلة غير مستعدة للدخول في «معركة» ضدى ! فقد كانت زوجتى وابنتاى تذرفان الدموع سخية ، لان السيد ثورنهل قد جاءهن ذلك اليوم ، واخبرهن ان مشروع رحلة الابنتان الى لندن قد قضى عليه نهائيا !! فقد ترامى الى مسامع السيدتين ، اخبار

سيئة عنا من شخص حقود ، ضاغن ، خبيث ، لا نعرفه ! — او يخيل الينا اننا لا نعرفه !

وغادرت السيدتين الريف ، تواً الى لندن في اليوم نفسه :.. ولم يتمكن السيد ثورنهل من الاطلاع على نص تلك الرسالة التى ارسلت الى السيدتين ولا معرفة مصدر الخبر او معرفة كاتبها المؤذ الخبيث ، غير انه اكد استمرار صداقته للعائلة مع حمايته لها ، بغض النظر عن الاخبار مهما كانت نصوصها واى كان الشخص الذى اشاعها ! مع ذلك ، فقد تحملت العائلة خبر فشلى بهدوء عظيم واستسلام تام ، محتجبا وراء انكسافها العظيم !! ولكن الامر الذى اقلق بالنا ، هو اهتمامنا وتفكيرنا في من يكون ذلك الدنيء السافل الذى تقول في عائلة هى ابعد ما تكون عن الاذية والشر وأوضع بكثير من ان تثير غيرة الناس منها وحسدهم لها ، وارفع عن الاساءة من ان تخلق الاشمئزاز والكراهية بين الناس !!

— ١٤ —

**عبثا** قضينا ذلك الليل وقسما من نهار اليوم التالى في محاولتنا معرفة خصومنا ! حتى انك لا تجد عائلة واحدة ، من جيراننا الكثيرين ، قد سلمت من التعرض لظنوننا وشكوكنا! .. وكان لكل منا حججه التى ابتندت عليها آراؤه ... وبينما كانت افكارنا نهبا للريب والظنون ، جاء احد ولدينا الصغيرين ، الذين كانا يلعبان خارجا ، حاملا حقيبة رسائل ، قال انه وجدها على العشب ... وقد ادركنا حالا ، انها تخص السيد برتشل ... لاننا سبق ورأيناها معه ايام كان يعودنا في منزلنا .. ولما فتحناها، وجدنا فيها بعض الملاحظات في مواضيع مختلفة وتواريخ بعض المواعيد المرتبط بها مع بعض الاشخاص ... واسماء اشخاص كان قد وعدهم بزيارتهم ، وبعض الارتباطات والمواعيد المختلفة لكن الشيء الذى استرعى انتباهى بصورة خاصة ، رسالة مختومة كتب عليها ما يلى :

«نسخة عن الرسالة التى سترسل الى السيدتين المقيمتان فى قصر «ثورنهل» وفي الحال، خطر لنا ان السيد برتشل هو هو ذلك المخبر السافل !. فتشاورنا فيما اذا كان محتما علينا فض الرسالة ، مع انها تخص آخر ؟. فاستحال تشاورنا الى جدال حار عنيف ! وقد عارضت انا مسألة فضها ، لكن صوفيا (التى قالت ان السيد برتشل هو آخر من يرتكب عملا

دنيئا كهذا ، بين الرجال) الحت على فضها وتلاوتها ، وهكذا اثنى الجميع على اقتراح صوفيا ، و ، نزولا عند طلبهم ، تلوت عليهم الرسالة ، وقد ورد فيها ما يلى :

سيدتى

«ان حامل الرسالة هذه ورسولى اليكما ، سيكفيكما مؤونة السؤال عن الشخص الذى تأتيكما منه ....فكاتبها صديق البرائة والسذاجة .. وهو على اهبة الدفاع عنهما لئلا تصابا بأذى او مكروه !..

«لقد بلغنى انكما عازمتان على استصحاب فتاتين ، اعرفهما حق المعرفة ، الى لندن ، مدعيتين استخدامهما «كمرافقتين» لهذا الغرض! .. انى لا ارضى عن رؤية السذاجة مخدوعة ! ولا للفضيلة ان تلوث !... لذلك ، ارى ان عملا كهذا سيؤدى حتما ، الى نتائج جد وخيمة والى عواقب ليس لكما بها قبل ! ..

«ان عقاب مثل هذا العمل، سيكون غاية في القسوة والعنف ... لم اعتد معاملة سيدات شائنات بشدة او قسوة ... وما كنت لانتهركما الان ، لو لم تهدفا الى ارتكاب جريمة !..فهذا تحذير من صديق .. فتاملا مليا بالعواقب التى ستنجم عن ادخال العار الى بيت هادىء ساكن ، تسكنه السمعة الطيبة ، والبرائة الطاهرة ..» !!

لقد انتهت شكوكنا عند هذا الحد!... فزوجتى لم تطق صبرا على تلاوة الرسالة حتى نهايتها .. ولم تستطع كبح جماح غضبها ... فصرخت صرخات النقمة والغضب على كاتبها ، ولم تكن اوليفيا اقل من امها عنفا وفورانا ، اما صوفيا ، فقد تملكتها الدهشة والحيرة ، ازاء هذه الدناءة ... اما انا ، فقد بدا لى هذا التصرف من احط مثل نكران الجميل وجحود المعروف صادفتها في حياتى !..

لم استطع الى تبين ذلك سبيلا .. ولا الى شرحه تأويلا !! الا اذا كان ذلك ناشئا عن رغبته في مقابلة ابنتى صوفيا في اكثر الاحيان ، او ربما علل نفسه ان في احتجازها فى الريف ، تسنح له فرص كثيرة تمكنه من الاجتماع بها !؟

جلسنا نفكر في تدبير المكايد للانتقام ! ... وفيما نحن كذلك، واذ بابننا الصغير ، يأتى مهرولا ، ويقول ان السيد برتشل قادم الينا وهو يقترب من الجانب الاخر من الحقل !.. نظرنا صوبه ، فرأيناه يدنو منا ،

.. ثم دخل البيت وجر كرسيا وجلس عليه ...

فقلت له : «انه ليوم جميل ، يا سيد برتشل !..»

فرد قائلا : «انه جميل جدا يا دكتور مع ذلك ، فاننى اترقب هطول مطر !»

عندئذ ، ثبت نظرى فيه وسألته : «اتعرف هذه ، يا سيدى ؟ اتعرف هذه الحقيبة ؟»

فاجاب : «نعم ، بكل تأكيد ، انها لى ... وقد سرنى انك عثرت عليها !! »

فسألته بحدة : «وهل لك معرفة بهذه الرسالة ؟ انظر الى جيدا ! انك معرفة بها ؟؟»

فاجاب : « هذه الرسالة ؟ اجل ، اعرفها ! .. وانا الذى كتبتها !»

فقلت : «وكيف تتجاسر على ذلك؟! بل كيف عن لك ان تكتب رسالة كهذه ، لا تنطق الا بالجحود ونكران الجميل ؟؟!!»

فاجابنى في منتهى الوقاحة ، قائلا: «وكيف خطر لك ، بل كيف تجرأت على فض رسالة ليست لك ؟؟ الا تعلم ان عملا كهذا يقتادك الى حبل المشنقة ؟ وما على الا ان اقسم امام القاضى انك مجرم في كسر قفل حقيبتى هذه ، حتى يحكم عليك بالشنق ، كما شنق كثيرون ، قبلك، من اللصوص البائسين التعساء !!»

ان هذا اللون من الوقاحة قد اثار كوامن نفسى ، بحيث كدت افقد معها قوتى على ضبط مشاعرى ، فصرخت به قائلا :

«اغرب عن وجهى ، ايها الشقى الكنود !! ولا تدعنى اراك ثانية !»

قلت هذا ، ثم قذفته بالحقيبة ، فتناولها بابتسامة واقفلها بكل هدوء، ومضى ... بعد ان تركنا حيارى مندهشين ازاء ثقته بنفسه ورباطة جاشه !!

لقد ثار ثائر زوجتى ، وتملكها الغيظ الشديد ، خصوصا لانه لم يكن ثمت شيء يستطيع آن يسخطه او ان يجعله يخجل من وقاحته ودنائة نفسه !

فقلت لها ، محاولا تهدئة حميا تلك الانفعالات التى ثارت الى درجة قصوى بيننا : «يجب ان لا ياخذنا العجب ، يا عزيزتى ، من ان الرجال الاشرار

يحتاجون الى الخجل والحياء ، انهم يخجلون من الفضيلة ، فقط ، ومن الرذيلة لا يستحون ، بل بها يفتخرون ويعتزون ! .. تحمر وجوههم خجلا اذا اكتشف الناس انهم يصنعون الخير ، لكنهم يتباهون بفعل الشر .. ان الشر والرذيلة في نظرهم موضوع فخر واعتزاز !! »

— ١٥ —

لا ريب ، في ان صوفيا قد حزنت لغياب السيد برتشل ، غير ان زيارات السيد ثورنهل لنا ، قد تكررت بعد رحيله واصبحت اطول من ذي قبل ، مما ادخل السرور الى قلوب كافة افراد العائلة !.. ان خطته التي رسمها لاصطحاب ابنتي الى لندن قد باءت بالفشل ... لكن فشل خطته لم يثنه عن ان ينتهز كل فرصة تسنح له لان يمدها بكل اسباب اللهو الممكنة ... كان يؤم بيتنا صباح كل يوم ، ويجتمع الى العائلة ـ اثناء انشغالي مع موسى في العمل خارجا ـ فيسليهم بحديثه الممتع عن لندن ووصفه لها ، مرددا على مسامعهم اخر ما سمعه من لطيف الملح وظريف الفكاهات !.

يجب الاعتراف ، بان زوجتي قد استخدمت الف طريقة من طرق المكر والدهاء ، لتوقعه في « الشرك »! فتفننت في اظهار مميزات ابنتها (اوليفيا) وجمالها ومهارتها اعظم جدا مما هي عليه حقيقة ! فاذا كانت الكعكات ، وقت تناول الشاي مخبوزة جيدا ، قالت ، ان اوليفيا هي التي خبزتها !.. واذا كان النبيذ طعمه لذيذا ، قالت ان اوليفيا هي التي صنعته !.. واذا كانت حلواء الغداء شهية ، ادعت ان اوليفيا هي التي مزجت الطحين والسكر والبيض والفاكهة فكانت هذه الحلواء الطيبة ! .. وكانت تقول للسيد ثورنهل ، انه يكاد يكون هو واوليفيا في حجم واحد ، او تأمرهما بالوقوف جنبا الى جنب لكي ترى من يكون اطول قامة!! كانت زوجتي تعتقد بان هذه الحيل تنطوي على كثير من الدهاء ، بحيث يتعذر على الناس معرفة الغاية منها !.. ومع ذلك ، فقد ادرك الجميع حيلها ، تمام الادراك ، وكان السيد الفاضل (ثورنهل) يقدم كل يوم برهانا جديدا على هيامه بها ، لكن «هيامه» هذا ، لم يصل به الى درجة طلب يد اوليفيا والتزوج بها !.. ولكن ما مر طويل وقت حتى جرى حادث ، مصادفة ، مما بدد كل شك في ان السيد ثورنهل ، قد صمم ـ فعلا ـ على اعتبار نفسه احد افراد عائلتنا ... وهاكم ما حدث :

خرجت زوجتي لزيارة عائلة جارنا السيد (فلامبورو) فعرفت منها ، ان هنالك فنانا متجولا في الريف ، قد رسم صور افرادها ، باجرة خمسة عشر شلنا للرأس ! (اى للفرد الواحد) .

والجدير بالذكر، ان هذه العائلة كانت تنافس عائلتنا في مسألتي الذوق والفن ، فكانت تحاول - على الدوام - ان تظهر بمظهر اسمى وارفع مقاما منا ، وكنا نحن ننافسها ونحاول ان نظهر بمظهر افضل ... ففي اخذ تلك الصور ، سبقتنا عائلة فلامبورو ، «شوط واحد الى الامام» (كما يسبق الجيش جيشا اخر بزحفه - ليلا - الى الامام ! ) . ورغم اعتراضاتي - وقد تكلمت واعترضت كثيرا ! فقد تقرر ان ترسم لنا صور ايضا !.. والان ، وقد اتفقت مع الرسام بهذا الخصوص ، وكانت مهمتنا التالية اظهار تفوقنا في الذوق، بترتيب الاشخاص وتناسبهم بعضهم الى بعض ..

كانت عائلة جارنا السيد فلامبورو، مؤلفة من سبعة اشخاص ، صوروا جميعا مع سبع برتقالات - اى كل منهم قد صور وهو ممسك ببرتقالة بيده (او بيدها) لكن هذا لم يكن دليلا على الذوق السليم او التنوع ، ولا برهانا على البراعة او التناسق ... وبعد اخذ ورد طويلين ، اتفقنا على ان تؤخذ لنا صورة واحدة تذكارية كبيرة ، تجمع الكل معا في اطار واحد.. فيكون بذلك، ارخص نسبيا ،ولان كل صورة يجب ان توضع ضمن اطار خشبي جميل ، سنحتاج ، طبقا لذلك الى سبع اطر ... اما اذا اخذت لنا جميعا ، صورة واحدة كبيرة ، فلن نحتاج الا الى اطار واحد كبير ..

كانت زوجتي ترغب في ان تظهر بمظهر فينوس(١) على ان تبدو البقية مرتدية البسة الشخصيات الاخرى ،المشهورة في الادب الاغريقي ... وقد سر السيد ثورنهل بذوقنا الفني كثيرا حتى انه طلب هو ، ايضا ، ان يصور مع باقي الاسرة ، في شخص الاسكندر الكبير ... وقد اعتبرنا تصرفه هذا ، دليلا على رغبته في الدخول معنا الى «حلقة» العائلة الواحدة ، فلم يسعنا ، اذ ذاك ، الا قبول طلبه ..

شرع الرسام في عمله ، وفي اقل من اربعة ايام كان كل شيء قد انجز ... وكان الجميع راضين عن عمله كل الرضى .. ولكن فكرا طارئا ملأنا خوفا ويأسا ، فاستبد بنا الفزع وتملكتنا الحيرة. ذلك ان طول الصورة

---

(١) الهة الجمال عند الاغريق

وعرضها ، كانا اكبر من ان نجـــدلها مكانا فى البيت نثبتها عليه . بل كانت من الضخامة بحيث لم تتســع «فتحة» الباب لادخالها منه ٠٠ فتركناها مسندة الى جدار في الحى، حتى صارت مثارا لمزاح سكان الحى وضحكهم ٠٠ فشبهها احدهم ، بقارب « روبنسون كروزو (١) اذ كان هذا القارب ١٠٠ اكبر من ان يستطاع نقله ٠٠

مع ان الصورة قد اثارت مـــزاح بعض الناس وضحكهم ، فانها اوحت الى البعض الاخر بالحقد ، وايقظـت كوامن الخبث فيهم ٠٠ ذلك لان حقيقة وجود صورة السيد ثورنهل معنـــاه في لوحة واحدة الى جانب صورنا ٠ قد اثارت حسد الناس وغيرتهم ٠٠ ثـــم راحت الهمسات تنتقل من شفة الى شفة ٠٠ وعندما قصدنا بعض الاصدقـــاء لزيارتنا ، اخبرونا بكل ما كان يتشدق به الخصوم ويتقولونه ضدنا ٠٠

لذلك، عقدنا اجتماعا عائليا للتشاور فيما يجب علينا عمله ضد خصومنـــا للحد من مكرهم وخبثهم ٠٠ فعقدنا النية على ان تتولى زوجتى السعى الى معرفة ما اذا كان السيد ثورنهل ٠ قد صمم ـ فعلا ـ على الزواج مـــن ابنتى اوليفيا : ذلك بادعائها استشارته في قضية اختيار زوج لها ٠٠ فان لـم يستميله هذا الى الافصاح عن رغبتـه في مصاهرتنا ، فما عليها ـ اذ ذاك ـ الا اخافته بمنافس له ٠٠ لم اكـــن لارضى عن ذلك ، لو لم تعدنى اوليفيا بالزواج من المنافس المقدم لها ، ان لم يمانع ذلك السيد ثورنهل بزواجـــه هو بها ٠٠

وفي المرة التالية ، عندما زارنـــا السيد ثورنهل ، تحوطت ابنتـــاى نفسيهما ، حيطة تامة ، فلم تظهـــرا وقتئذ ، لكى تعطيا امهما فرصة لتنفيذ خطتها ٠٠ والحقيقة ، انهما انسحبتا الى الغرفة التالية لغرفتنا ، لكى يتسنى لهما الاستماع ـ خلسة ـ الى الحديث بكامله ٠٠

بعد ان تحدثت زوجتى قليلا عـــن زواج الانسة فلامبورو بالسيد سبانكر تحولت الى الحديث عن ابنتها ، طبقا لخطتها المرسومة : فقـالت : والان ، ايها السيد ثورنهل ، هل تستطيع ان تدلنى على زوج لائق بابنتى اوليفيا؟»

فاجابها قائلا : «سيدتى ، لـــو فوض لى ان اختار ، لما اخترت لها الا الرجل المقتدر الماهر ، الكامل الثقافة والتهذيـــب ٠ وغـــير هذه مـــن الصفات الحميدة ٠ الـــتى تجعـــل من الزوجة ملاكا سعيدا !!»

---

(١) اسم قصة للكاتب الانكليزى الكبير «دانيال ديفو» (١٦٦٠ ـ ١٧٣١)

فاجابت زوجتى : «نعم ، ولكـــن هل تعرف رجلا هذه صفاته !»

فاجاب : « كلا ، ياسيدتى ، انـــه من المستحيل ان نعرف شخصـــا يستحق ان يكون زوجا لها ! انهـــا كنز ، اعظم جدا من ان يكون في حيازة رجل ما انها آلهة ! انها ملاك !

– آه ايها السيد ثورنهل . انـك لتمالق ابنتى فقط . والحقيقة اننـا نفكر بتزويجها بالمزارع ويليامـــز ، رجل امين ، سليم الجسم ، يركن اليه في الملمات ، قادر على ان يتعايش وإياها بالرضى والهناء ، ولقد طلب يدهـــا مرارا عديدة ( وكانت على حق ) ..انه ليسرنى رضاؤك واستحسانـــك لاختيارنا .. فهل توافق على ذلك . ؟؟

– كيف اوافق على مثل هذا الاختيار يا سيدتى ؟؟ كيف ؟ لا . لا . ابدا . ماذا ؟ اتضحين بجمال ابنتك وذوقها وصلاحها من اجل مخلوق فاقد الحس لا يقدر هذه النعمة والبركة حـــق قدرهما ؟؟ عفوا ، انى لا استطيـــع الموافقة على عمل جائر كهذا . لاسباب لا ارى موجبا لذكرها !!

فصرخت دبورة : « ألديك اسباب حقا ؟ ياسيدى ؟! انه ليسرنى جـدا ان اعرف هذه الاسباب ؟»

فاجابها : « عفوا ، ياسيدتى . انها في عمق اعماق صدرى ... لذلـــك يتعذر على الغير اكتشافها . » حينئذ ، وضع يده على صدره وقال :

«وستبقى مدفونة فيه ، هنا !»

بعد ذهاب السيد ثورنهل عنـــا ، عقدنا اجتماعا عائليا . للتشاور فلم نتوصل الى معرفة ما يجب عمله ازاء هذه الاقوال المعسولة ، الناعمة ... اما اوليفيا ، فقد اعتبرت كلماتـــه ادلة شديدة على شغفه وعظيم هيامه بها ، اما انا فلم اكن كثير الامـــل اذ كانت في نظرى تحمل عواطف الحب اكثر من فكرة الزواج .. لذلـــك ، عقدنا العزم على العمل على تحقيـق مشروع المزارع ويليامز ..

– ١٦ –

ان حب السيد ويليامز لاوليفيـا ، قد اضحى في حكم الزوال ، لانه لـــم ينل منا ، في الايام الاخيرة ، الا تشجيعا ضعيفا جدا .. لكنه لم يكن يحتاج الا

الى تشجيع قليل ، لبعثه من جديد ،او احيائه ثانية ، مع ما عرف عنه من قوة وحيوية ..

بعد مضى ليلة او ليلتين ، تلاقى السيدين ثورنهل وويليامز في بيتنا ، وكان الواحد منهما ينظر الى الاخر بعين الغضب والسخط الشديدين وتظاهرت اوليفيا ـ حينئذ ـ بالميل الى الحبيب الجديد بكل عواطفها وجوارحها . فبدا السيد ثورنهل كسير النفس ،مكتئبا ازاء هذا التفاضل وبوجه ذليل ونظرات حزينة ،استأذننا بالانصراف ومضى لسبيله ..

ولكن مهما تحمل السيد ثورنهل من الشقاء ، فقد كان من السهل ان نلاحظ ان اوليفيا كانت تكابد آلاما وهموما اعظم .. فكانت كلما خلصت من مقابلة حبيبها ، تخلو الى نفسها لتقاسي في وحشتها وخلوتها ما شاء الله لها من الحزن والالم ..

وجدتها ذات مساء في مثل هذه الحالة ، فقلت لها : «ترين ، الان يا بنيتي ، ان ثقتك بحب السيد ثورنهل لم تكن سوى حلم من الاحلام ، بدليل سماحه لرجل آخر بان يكون منافساله .. وهو يعلم علم اليقين ، انه باستطاعته ان يحتفظ بك لنفسه بمجرد اعلان صريح عن رغبته في التزوج بك ..»

ـ « نعم ، ياوالدى ، ولكن لديه اسبابه الخاصة لهذا التاخر .. وانا واثقة من ذلك .. ان الاخلاص البادى على نظراته وكلماته ، يحملانى على الاقتناع باحترامه الحقيقى لى .. »

فقلت لها : « اوليفيا ، حبيبتى . مهما طلبت من الوقت لحمل حبيبك المعجب بك على البوح بخفايا صدره وكشف مكنونات قلبه ، فسيعطى لك .. ولكن يجب على في النهاية ان اجيب السيد ويليامز على طلبه ، مكافأة له على امانته وولائه .. عينى اليوم ، يابنيتى ، وليكن هذا اليوم بعيدا حسبما ترين موافقا . وفي غضون ذلك ، يجب ان تخبرى السيد ثورنهل اليوم الذى عزمت ان اسلمك فيه لرجل اخر .»

فجددت وعدها ـ للمرة الثانية ـ بان تقبل التزوج بالسيد ويليامز اذا خيب آمالها السيد ثورنهل .. ولما اتيح لنا الاجتماع معا ، في فرصة اخرى تعين ذلك اليوم نفسه من الشهر القادم بحضور السيد ثورنهل للاحتفال بعقد قران اوليفيا على منافسه السيد ويليامز

مر اسبوع واحد ، لكن السيد ثورنهل لم يبذل فيه اى مسعى ليحول دون :

زواجها المرتقب .. ومر اسبوع ثان تكررت فيه زياراته لنا ، لكنه لم يصرح بشيء على الاطلاق .. وفي الاسبوع الثالث ، انقطعت عنا زياراته بالكلية .. اما ابنتي اوليفيا ، فلم يبد عليها اى ملل او ضجر ، بل استسلمت لاحكام القضاء والقدر .

كان ذلك ليلا .. وقبل موعد عقد قران ابنتي اوليفيا باربعة ايام ، عندما اجتمع افراد عائلتي حول النار الساحرة الخلابة ، المتأججة في الموقد الأسر الجميل ، يسردون قصص السنين الخوالى ، ويرسمون الخطط والمشاريع للمستقبل .. فاحسست - عندئذ - بانى اسعد من ملك . فالتفت الى زوجتي وقلت لها : «دبورة ، يا حياتى . ما اكثر ما ينبغى علينا ان نحمد الله سبحانه وتعالى على ما اسبغه علينا من صحة وسلام وراحة وهناء .. انى اشعر الان ، بانى اسعد حظا من اعظم سلطان على وجه الارض اننا نقترب رويدا رويدا نحو الشيخوخة ، ومن المرجح ان يكون مساء حياتنا هنيئا ، سعيدا ، كما كان صباحها .. ان صفحة تاريخ عائلتنا ناصعة البياض ، نقية ، ولا نرى فيها لطخة واحدة سوداء نعاب عليها او تشعرنا بالخجل منها .. لقد انحدرنا من اجدادا لا يعرف الخزى اليهم سبيلا ولا يستطيع ان يجد في نفوسهم مكانا كما اننا سنترك بعدنا جيلا من ابناء صالحين ، لاعيب فيهم ولا شنار .. هلموا ننشد اغنية ، يستطيع ترديدها الجميع معا . - ولكن اين الحبيبة اوليفيا ؟ ان صوتها الملائكى لاعذب من اصوات جميع المغنين والمغنيات !!

وفيما انا اتكلم ، دخل دك راكضا وهو يصرخ : «بابا ، بابا ، انهما ذهبت عنا . ان اوليفيا قد تركتنا وذهبت . الى الابد !

- «ذهبت ابنتي !»

- « نعم . ذهبت مع رجلين في عربة يجرها حصانان .. وقد قبلها احدهما وقال انه مستعد للموت من اجلها . لقد صرخت كثيرا وارادت العودة الينا ، ولكنه عاد واقنعها ثانية بالهرب معه .. فدخلت العربة ، قائلة . «يا الهى . ماذا سيعمل والدى المسكين عندما يعرف انه قد قضى على القضاء الاخير .. ؟»

فصرخت : « ليسقط عليه غضب السماء الابدى .. ياله من سارق ولص هاتوا مسدساتى فسالحق به .. يا له من وغد لئيم !!»

عندئذ قالت دبورة : «اى زوجى العزيز ، يجب ان تتعلم الصبر ، والا

فاعلم ان ابنتنا قد خدعتنا خـــداع الوغدة اللئيمة !!»

وقال ابنى بحدة : «حقا ، ياسيدى ان القوة والغضب لا يجديان شيئا . ان غيظك لشديد جدا .. والشـــدة لا تجدى فتيلا .. ان تصرفك هـــذا ليزيد في آلام امى ، ثم ، فضلا عـــن ذلك لا يليق بشخصك المحتـــرم ان تلعن ، هكذا ، اكبر اعدائك.» !!

ـ « لم العنه ، ايها الولد .. اصحيح انى لعنته ؟! »

ـ بلى ، لعنته يا سيدى !!

ـ « اذن ، فليسامحه الله وايـاى ان كنت قد فعلت ذلك .. ان الـذى اثار غضبى الشديد هذا ، ليســـ نافها ، كما تظن ، كما ان عينى اللتين لم تدمعا منذ سنوات عديدة ، لايسيل دمعهما الان ، لان همى طفيف وكربى قليل .. آه يابنى . كم يعز علـــى اختطاف ابنتى وحبيبتى . الا ليـــت الخزى يضع يده .. اغفرلى يـارب . ! ماذا كنت سأقول ؟! كم كانت طيبة هذه الفتاة .. وحتى هذه اللحظـــة المشئومة كانت تبذل قصارى جهدها في سبيل اسعادنا ! ولكـــن ، قل لى يابنى ، هل رائيتهما منطلقين معـــا؟ او لعله اكرهها على الهروب معـــه؟ فان كانت قد فرض عليها ذلك قسرا ، فهى لا شك ، طاهرة الذيل . بريئة »

فاجاب ابنى قائلا : « آه كلا يـــاابتى ، مـا كان منه الا ان قبلهـــا ودعاها ملاكه ، ثم بكت كثيرا واستندت الى ذراعه ، ثم دخلت العربة وانطلقت بهم سريعا !»

حينئذ صرخت زوجتى بصـــوت تخنقه العبرات : « يالها من مخلوقـــة كنود ! تهجر والديها دون ان تـــرى منا ما يغضبها او يستفزها . ـ انهـــا ستنزل شيبتك الى الهاوية . ولـــن البث طويلا حتى الحق بك !!»

وهكذا صرفنا ليلتنا ننتهر ابنتنا حينا ، ونعيرها حينا آخر ، ولم نلعـــن ذلك المخاتل الوغد الذى خانها وغدر بها !

واخيرا ، عزمت على البحث عـــن هذا الخائن الغادر حيثما كان وانـــى وجد ، لا عيره واوبخه على خيانتـــه وخسة نفسه ..

وفي صباح اليوم التالى ، جلسنـــا لنتناول طعام الفطور ، فاحسسنـــا بالفراغ الذى خلفته ابنتنا الشقيـــة البائسة ، لما كانت تبعثه فينا جميعا ، من سعادة وانشراح ..

« وان ارذل وصمة في تاريخ عائلتنا كهذه ، لن تدنس عتبة دارنا ولن ادعوه هذه الشقية الكنود «ابنتى» بعد الان !» قالت زوجتى ذلك ، محاولة تخفيف وطأة هذه الصدمة عن طريقة الزجر والانتهار ...

فقلت لها : « ايتها الزوجة العزيزة لا تتكلمى بهذه الخشونة والعنف ، ان هذا البيت وهذا القلب ، سيكونان على الدوام منتوحين امام ابنتنا الخاطئة المسكينة التائبة .. وكلما اسرعت في عودتها ، كلما كان الترحاب بها اقوى واحر .. سابحث عنها حيثما اجد لها اثرا ، وانى وان كنت لا استطيع ان امحو العار عنها ، لكننى استطيع ان اضع حدا له وامنعها من مواصلة الغوص فيه .. »

— ١١ —

لم يكن باستطاعة ابنى الصغير ان يصف لنا الشخص الذى دفع ابنتى بيده الى داخل العربة ، لكن ظنونى كلها حامت حول صاحب بيتنا الشاب السيد ثورنهل .. لذلك يممت وجهى نحو قصر ثورنهل ، وقبل وصولى اليه التقيت باحد القرويين ، واسر الى بانه رأى سيدة ، تشبه الى حد بعيد ابنتى ، برفقة رجل ... لكن وصف القروى للرجل لا ينطبق على السيد ثورنهل على الاطلاق ، بل ينطبق ، بالاحرى على السيد برتشل !!

لم اقتنع بصحة هذا الخبر ، بتاتا ، لذلك تابعت سيرى الى منزل السيد ثورنهل ... ورغم وصولى اليه باكرا اصررت على رؤيته في الحال . فحضر توا ، وخاطبنى بأسلوب في منتهى الصراحة والاخلاص .. لقد بدا لى صادقا في اقواله ، وقد صرح لى قائلا انه شديد الدهشة والحيرة من تصرف ابنتى هذا واقسم بشرفه .. انه لم يكن له علم بكل ما حدث !!

تحولت ظنونى ، اذ ذاك ، نحو السيد برتشل . فتذكرت الاجتماعات الخاصة التى كان يعقدها مع ابنتى . ثم قابلنى « شاهد » آخر ، واخبرنى بان السيد برتشل وابنتى قد وصلا الى « ويلز » . — وهى بلدة تبعد قرابة ثلاثين ميلا عن بلدتنا !!

لم يخطر لى قط ، وانا في ذلك الاضطراب والقلق الفكرى ، ان ذينك الشاهدين قد اقيما — عمدا — فى طريقى ، لكى يضلانى فاذهب ضاربا في الارض باحثا !!

وعند وصولى بلدة ويلز ، قابلنى شخص ممتطيا حصانا ، تذكرت للحال ، انى سبق واجتمعت وإياه في منزل السيد ثورنهل .. فاشار على بمتابعة سفرى الى ميدان سباق الخيل ـ وكان يبعد قرابة ثلاثين ميلا اخرى، عن ويلز ـ قائلا انى ان تتبعتهما وسرت في اثرهما ، لعلى ادركهما هناك ..

وفي صبيحة اليوم التالى ، واصلت سيرى نحو ميدان السباق ، فوصلته في الساعة الرابعة من بعد الظهر ... رأيت السيدات والرجال في عرض جميل جذاب .. وكلهم منشغلين فى «حرفة» واحدة : وهى اللهو والمسرات. اما انا ، فكنت اتحرق باحثا عن «ولدضال» لارده ، الى جادة الفضيلة ـ شتان بين التثرين !! وقد لاح لى انى لمحت السيد برتشل على مسافة منى ، لكنه اذ خشى مقابلتى ، عند اقترابى منه ، اختلط بالجمع الحاشد وهكذا غاب عن ناظرى !!

وعندما رأيت انه من العبث ان استمر في تعقبى ، حزمت الامر على العودة الى بيتى وعائلتى البريئة الساذجة لانها في مسيس الحاجة الى مساعدتى .. لكن الانفعالات والمشقات التى كابدتها ، قد رمتنى في احضان الحمى .. اذ كنت قد احسست ـ قبل مغادرتى ميدان السباق ـ بالحرارة ترتفع في جسمى تدريجيا .. وقبل ان ابلغ بيتى بمسافة سبعين ميلا ونيف عرجت على فندق صغير قائم على جانب الطريق العام .. وهنالك انتظرت متقلبا على فراش المرض ، بجلد وصبر عجيبين ، الى ان عادت حرارتى الى طبيعتها واستعدت صحتى ونشاطى ..

مكثت في الفندق مدة تقرب من ثلاث اسابيع . واخيرا تحسنت صحتى وتعافيت : ولكن من اين لى المال لادفع حسابى في الفندق !؟ ان انشغال فكرى بهذا الامر ، كان يحيلنى الى فراش المرض ثانية ، لولا ان ساعدنى مسافر ، كان قد دخل الفندق للاستراحة ولتناول بعض المرطبات .. وكان هذا المسافر بائع كتب .. وقد نشرلى ، في المدة الاخيرة كتابا ، فاستدنت منه بضع جنيهات ، وهكذا غادرت الفندق .. واذ احسست ان في جسمى ـ لم يزل بعض الوهن ، عزمت على العودة الى البيت رأسا ، على ان اجتاز المسافة على مراحل مريحة ، عشرة اميال للمرحلة الواحدة في اليوم الواحد ..

وبعد ان سرت مدة ساعتين ، تقريبا رأيت عربة شحن على مسافة منى ، فعزمت على اللحاق بها .. ولما صرت محاذيا لها ، عرفت انها تخص فرقة متجولة من فرق التمثيل المسرحى ، وكانت تنقل مقتنياتهم ومشاهد تمثيلهم الى القرية المجاورة ..

لم يرافق العربة سوى سائقها واحد الممثلين .. اما باقي الممثلين ، فسيلحقون بها في اليوم التالي، فدخلت مع الممثل في حديث طويل ، حتى وصلنا القرية !

ويظهر ان القرويين قد بلغهم خبر اقترابنا ، ذلك ان عدد كبير من الغوغاء قد خرجوا الينا واخذوا يتفرسون فينا !! ولما وجدت انى محاطا بهم ، لم ار لائقا البقاء هكذا في وسطهم فلذت باقرب فندق واعتصمت به ! وهناك صادفت رجلا مرتديا لباسا انيقة، فسألني ان كنت حقا من رجال الكهنوت ، ام انى كنت اقوم بدور احد هؤلاء الرجال مع فرقة التمثيل على المسرح !؟ فاعلمته بانى لا امت الى فرقة التمثيل بصلة .. عندئذ وبكل ادب واحترام طلب الى والى الممثل مشاركته قدح من النبيذ .. وفي اثناء الشراب ، كان مضيفنا يتحدث في الشئون السياسية والاقتصادية الحديثة ، وبصورة جدية واهتمام زائد ، عن الملوك والوزراء والاحزاب السياسية والشرائع والقوانين والمناقشات البرلمانية .. الخ . الخ .

فقلت في نفسى ، انه ولا ريب ، عضو في مجلس النواب اللندنى ، يعقد الجلسات هناك ويشترك فى سن شرائع البلاد ..

عندئذ ، سألت مضيفى ان كان باستطاعتى تناول العشاء معه فى الفندق فالح على وعلى الممثل ان نتناول طعام العشاء معا في بيته ..

## — ١٨ —

كان بيت مضيفنا يقع على بعد مسافة قصيرة من القرية ، وحيث ان العربة لم تكن معدة — حسب قول مضيفنا — فقد اقتادنا بنفسه مشيا على الاقدام ، وما لبثنا ان وصلنا الى منزل نم تقع عيني على مثيله جمالا وفخامة ، في تلك النواحى من الريف . وكانت الغرفة التى دخلناها ، مفروشة بابهى الاثاث واثمنه . وكانت الموائد والمقاعد وخزانات الكتب وغيرها من الاثاث ، من احدث الموديلات واثمنها على الاطلاق .. وكانت تغطى ارض الغرفة سجادة جميلة جدا ، جمع نسيجها مختلف الالوان واحلى الصور !!

تركنا الرجل برهة قصيرة ليأمر باعداد العشاء ، عندئذ ، غمزنى الممثل بعينه ، كانه يريد ان يلفت انتباهى الى السعادة التى نحن فيها . وما عتم مضيفنا ان عاد الينا ، ثم حضر العشاء .. وكان عشاء فاخرا

جمع من الاصناف مالذ وطاب .. ثم عرفنا بسيديتين ، مرتديتين ثيابا ليست غالية الثمن ، لكنها جميلة .. اما حديث المائدة فقد اخذ يزداد قوة وحبورا .. وقد كانت « السياسة » الموضوع المفضل في حديث مضيفنا اثناء تناولنا الطعام ..

قال مضيفنا مفتخرا .. « .. انى ادعو نفسى رجلا حرا ! الحرية ! نعم الحرية ياسيدى ، هى موضوع فخر انكلترا واعتزازها !! واننى لاحترم رجال السياسة الذين يحمون حمى حريتنا !! »

فقلت له : « ارجو انك تحترم شخص الملك ، ايضا ! »

قال : « نعم ، انى احترمه طالما يتصرف حسبما تقتضى امور البلاد ، وحسبما نريد نحن ، رجال البلاد ! .. لكنه اذا استمر على تصرفه الاخير .. »

ان كلمة « الاخيرة » قد استفزتنى ، فتكلمت بقوة وحماس لاهب مدة طويلة وفي ختام خطابى صرخت خائلا : انى مستعد ان اموت فداء الملك ! انى مستعد ان اذهب ضحية عن المملكة ! المملكة المقدسة ! واذا كان ثمت رجل مقدس بين الرجال ، فما ذاك الا ملك الامة المتوج ! وكل انتقاص من سلطته وقوته هو انتقاص من حريات رعيته الصحيحة !! »

لقد حاول مضيفى قطع الكلام على مرارا عديدة ، ولكن لما عيل صبره ، لم يتمكن من كبح جماح نفسه فصرخ قائلا : ماذا تقول ؟! انى ، اذن جئت بعدو الحرية الى بيتى ؟! اغرب عن هنا ! امض ! لا تدعنى اراك ثانية ! »

حينئذ شعرت بانى تماديت فى الكلام ، فطلبت اليه الصفح عن الاسلوب الحاد الجارح الذى تفوهت به ..

فاجاب : « ماذا ؟! اتطلب العفو ؟ ! اظن ان كلمات كهذه تحتاج الى عشرة الاف عفو وعفو !! ماذا تقول ؟ اترغب الى التنازل عن حريتى ؟! كلا ، يا سيدى ، انى اصر على خروجك من هذا البيت في الحال ! ـ والا حلت بك اوخم العواقب واسوءها ! انى اصر على ذلك ، يا سيدى ! فاخرج من هنا !! »

كنت على وشك طلب الصفح منه مكررا ، عندما سمعنا قرعا على الباب فصرخت السيدتان : « حقيقة كالموت ! ان الطارق لا بد من ان يكون سيدنا وسيدتنا وقد عادا الى البيت !!

يبدو لى ان مضيفى لم يتعد كونه الساقى ، فقد احب ان يظهر بمظهر

الرجل العظيم اثناء غياب سيده ،وان يلبس ـ ولو الى حين ـ لبوس سيد البيت نفسه !! والحقيقة ، التى لا شك فيها، ان حديثه عن الشؤون السياسية والسياسيين ، لم يقل براعة ومهارة عن اى سيد في الريف !.

ان الارتباك الذى غمرنى لدى رؤيتى سيد البيت وسيدته الحقيقيين يدخلانه ، لا يفوقه ارتباك ، حتى انهما لم يكونا اقل منى دهشة وذهولا .. فما ان رآنى سيد البيت الحقيقى ،حتى هتف موجها كلامه الى والى رفيقى الممثل : «انى انا وزوجتى ، خادماكما الوضيعان ... انه تفضل منكما لم نكن نتوقعه !»

لا ادرى على التحقيق ، أأصبت بالبكم ، ام ذهلت عن نفسى ولم اعد اعرف ماذا يجب على ان اقول ؟؟! الحقيقة ، اننى احسست بغباوة لم اشعر بمثلها قط في حياتى كلها !.. وفي هذه اللحظة دخلت سيدة ... ولم تكن هذه السيدة سوى الانسة العزيزة .. ارابلا ويلموت !! خطيبة ابنى جورج (سابقا) ، والتى كان سيتزوج بها لو لم تفسخ الخطبة للاسباب الوارد ذكرها في الفصل الاول من الرواية ... فلما رأتنى ارتمت بين ذراعى وهى في غاية الفرح والحبور ، وصرخت قائلة : « سيدى العزيز الى اية صدفة سعيدة نحن مدينون من اجل هذه الزيارة المفاجأة؟ انى لعلى يقين بان عمى وعمتى سيبتهجان غاية الابتهاج ، لما يعرفان ان ضيفهما ما هو الا الدكتور برمروز الصالح !»

وما ان وقع اسمى على اذان السيد والسيدة صاحبى البيت ، حتى اسرعا الخطى الينا ورحبا بى ترحيبا يدل على عظيم كرمهما وحسن ضيافتهما !..

امضيت ليلتى تلك في غرفة على جانب كبير من الفخامة والبهاء : وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ،رغبت الى الانسة ويلموت في التنزه معا في حديقة المنزل .. وبعد ان صرفنا وقتا في التمتع بمشاهدة جمال المكان ومحاسنه، سألتنى عن اخر خبر وصلنى من ابنى جورج ، متظاهرة بعدم المبالاة، عند طرحها هذا السؤال كان الامر لا يهمها في كثير او قليل !. لكن انى لها ان تخدعنى ؟..

فأجبتها : «يؤسفنى ، يا آنستى ، ان اقول ، انه قد مضى على غيابه ثلاث سنوات لم يكتب خلالها لاصدقائه ،حتى ولا لى .. اين هو الان ؟ لا ادرى ... وربما لن اراه ، ثانية !..والحقيقة الظاهرة ، ان القدر قد حرمنا من تذوق كأس المسرات كما كنا نتذوقها ونحن جلوس حول الموقد في واكفيلد !؟..

عندئذ ، تساقط الدمع من عينى هذه الفتاة الطيبة ، فامسكت عن الكلام ... وقد سررت عندما عرفت انها بقيت ثابتة على حبها لابنى جورج ، وان التغيير لم يعرف الى قلبها سبيلا طوال هذه المدة التى غادرت بها ذلك القسم من الريف ، وانها قد رفضت طلب الكثيرين للتزوج بها .. ثم دارت بى في ارجاء الحديقة الفسيحة وهى تشير الى المماشى الجميلة والمظلات الظليلة ، منتهزة كل فرصة سانحة لطرح سؤال جديد حول ابنى جورج.

دامت الحال بنا هكذا طوال ساعات الصباح وقسما من الظهيرة ، عندما رن الجرس معلنا وقت الغداء .... واذ دخلنا البيت ، رأينا مدير فرقة التمثيل قد حضر ليعرض علينا تذاكر ، لمشاهدة الرواية التى كان مقررا ان تمثل في تلك الليلة .. وقد اخبرنا بان سيقوم بتمثيل الدور الرئيسى في تلك الرواية ، شاب لم يظهر على مسرح التمثيل سابقا : وقد اثنى المدير على هذا الممثل ثناء حارا ، قائلا ، ان هذا الشاب قد خلق لان يكون ممثلا ناجحا ! بل لعله لم يخلق الا ليظهر على خشبة المسرح بل لعل المسرح لم يخلق الا له !! يخرج من حنجرته صوتا عذبا ... كلماته لحنا شجيا .. اما ظهوره على المسرح ، فيدعو الى الاعجاب والدهشة ... ». وقد التقينا به ورافقنا في سفرتنا الى هنا مصادفة »

ان ما سمعناه قد اثار فينا حب الاستطلاع والفضول .. ونزولا عند الحاح السيدتين والتماسهما ، رافقتهما الى دار التمثيل ، فاستقبلنا بمظاهر الاحترام والترحاب الحار ، ثم اتخذنا اماكننا في المقاعد الامامية .. حيث جلسنا ننتظر بفروغ صبر ، ظهور الممثل الجديد !!

واخيرا ، اعتلى الممثل المرتقب المسرح !!

انى اترك للآباء ان يتصوروا الشعور الذى غمرنى عندما رأيت ان الممثل الجديد هذا ، لم يكن سوى ابنى البائس جورج بالذات !! وكان وشيكا ان يبدأ بالتمثيل ، لما القى نظرة على جمهور المتفرجين الحاضرين .. واذ لمحنى والانسة ويلموت وقف على الفور ، لاقدرة له على النطق ! جامدا كأبى الهول لا يتحرك !!

ظن الممثلون الواقفون خلف الستار ان وقوفه هكذا ، كان ناتجا عن هيبة الموقف على المسرح او تهيب او حياء ! لذلك ، حاولوا تشجيعه بطرقهم الخاصة ، لكنه ، بدلا من ان يستأنف التمثيل ، تفجرت عيناه بفيض من الدموع وهرول بعيدا عن المسرح !

لست ادرى كيف كان شعورى في هذه المناسبة ، ولكن سرعان ما نبهتنى الانسة ويلموت من ذهولى،وامرتنى، بصوت مرتجف ووجه ممتقع، ان ارافقها الى بيت عمها .. فاجبتها الى طلبها !.. ولما ، علم السيد «آرنولد» ان الممثل الجديد لم يكن سوى ابنى .. امر الحوذى بالاسراع فورا ، الى دار التمثيل ، ودعوته الى البيت ...

جاء ابنى جورج ، فرحب به السيد آرلوند اجمل ترحيب والطفه، اما انا ، فحييته بفرح اللقاء ، في حين تظاهرت الانسة ويلموت بالبرود وعدم الاكتراث ! لكنى ادركت انها انما تلعب دورا ليس هو من حقيقة شعورها في شيء !.. والحقيقة ، ان عقلها قد لفه دوار عظيم ! فذكرت اكثر من عشرين شيئا سخيفا ، تعبر بها عن فرحها وابتهاجها ، لكنها كانت تقهقه عاليا ، كانها تبحث عن معنى لما تقول !!

وكانت الفينة بعد الفينة، تسترق الخطى الى المرآة المثبتة على الحائط لتنظر ، خلسة ، الى وجهها ، فتشعر بالسعادة لدى رؤية جمالها الذى لا يقاوم !!

وبعد قليل من الوقت ، جلسنا جميعا حول المائدة نتناول طعام العشاء ..

— ١٩ —

بعد تناولنا طعام العشاء ، تفضلت السيدة آرلوند ، وعرضت علينا خادمين من خدمها لاحضار حقائب ابنى ، فتمنع ، بادب ، عن قبول هذا العرض الكريم! ثم عادت وعرضت طلبها ثانية ، لكنه ابى ان يأتى احد بامتعته !..واخيرا ، اضطر الى اعلامها بان كل ما يملكه من متاع هذه الدنيا: عصا واحدة وطردا صغيرا ، ليس الا !!

فقلت لابنى : « عجبا ! كنت فقيرا لما رحلت عنا ، وانك لتعود الينا فقيرا ايضا ، ومع ذلك ، لا اشك في انك رأيت الشيء الكثير من العالم !»

فقال : « نعم، ياسيدى ، ان حافظة نقودى خالية من النقود كما كانت عندما رأيتك آخر مرة ! لا بل لم تكن قط خالية من النقود خلوها الان ، كان فيها، قبلا ، بعض الريالات اما الان ، فليس فيها بنسا واحدا !!

عندئذ، التفتت اليه السيدة آرنولد وقالت : «اظن ان قصة مغامراتك، ياسيدى ، لا بد من ان تكون مسلية وطريفة !!»

فاجابها ابنى: « سيدتى ،ان فرحك بالاستماع اليها لا يعادل نصف فرحى بسرد حوادثها . ـ فحالما وصلت لندن لم يكن هناك شىء يعنينى سوى تسليم رسالة التوصية التى كتبها والدى لابن عمنا ... وكان مشروعى الاول الذى رسمته لنفسى ، هو ان اكون مدرسا في مدرسة داخلية ...

« فطلبت نصيحة ابن عمى ، فقال، « لقد كنت مدرسا في مدرسة داخلية، انا بالذات ! وافضل ، بالاحرى، ان اكون سجانا على ان اكون مدرسا ـ كما كنت سابقا ـ في مدرسة داخلية» كنت انهض مع الفجر ولا آوى الى فراشى الا متأخرا مع الليل ؟! علاوة على ذلك ، فقد كان المدير يشتمنى ، وكانت الرئيسة تكرهنى لدمامة وجهى ، وكان الضجر يملأنى بسبب التلاميذ في الصف !؟ ولم يكن مسموحا لى الخروج لاستنشاق الهواء ولو لدقائق معدودة !... أواثق انك تستطيع ان تكون مدرسا في مدرسة داخلية ؟! دعنى امتحنك ، واجبنى .. هل تستطيع ان تكبح جماح تلاميذ « كالعفاريت » ؟؟!

«قلت، لا يمكننى ذلك» ـ كذلك لا يمكنك ان تكون مدرسا داخليا !.. وهل تاكل كثيرا ؟ أعنى، هل اوتيت شهية طيبة على التهام الطعام !؟

قلت ، نعم . .

ـ اذن لا يمكنك ان تكون مدرسا داخليا !.. اسمع! اذا اردت ان تكون لنفسك مهنة محترمة ، فخير لك ان تعمل اى عمل تستطيع ان تقوم به يداك ، لكن حذار ان تعمل في مدرسة! ثم تابع ابن عمى كلامه « .. مع ذلك فانى أرى انك واسع الخيال ، وثقافتك لا بأس بها .. فما رأيك في ان تكون كاتبا .. مثلى ؟.. لاشك انك قرأت عن نوابغ الرجال الذين عاشوا دون ان تكون عندهم كسرة خبز يتبلغون بها... محرومين من مقومات الحياة باتخاذهم «التأليف» مهنة لهم ... لكنك لست مضطرا الى ان تحرم نفسك من الطعام ، اوان تكتفى بكسرة الخبز ، وانما يمكن ان يتوفر لك من الطعام اطيبه ، وان كثيرين ممن يعيشون باقلامهم ، بل ممن أثروا من صناعة الادب ، لم يهبهم الله ذكاء فذا ولا نبوغا خارقا ، بل ان منهم من لو شاء ان يعد نفسه اسكافا، لما اعانه ذكاؤه ولا سمت به كفايته فوق ترقيع النعال العتيقة !»

«عندئذ» حزمت امرى على العمل حسب اقتراحه ، وكتبت كتابا طريفا فى نوعه ...

وهنا قاطعت ابنى سائلا اياه في لهفة وشوق : « وماذا قالت جمهرة الادباء والمثقفين يابنى ، في كتابك هذا ، وكيف تلقوه ، واى نقد وجهوا اليه ؟؟»

ـ لم تقل جمهرة الادباء والمثقفين في كتابى شيئا ، يا ابت ، ولم تستقبله ولم توجه اليه نقدا ما . لقد منيت بفشل ذريع ، يا ابت ، فقد لقى كتابى شر انواع النقد الذى يمكن ان يصبه الناقدون على كتاب وهو الاهمال ! ثم اردف «كنت ذات يوم جالسا مكتئبا ، في المتنزه العام ، عندما اقترب منى شاب وسيم حسن اللباس انيقه ، وكنت اعرفه جيدا ، فقد كنت واياه ايام التلمذة في جامعة اكسفورد .. ولما كان متأنقا جدا بلباسه ، احس بالخجل ، خوفا من ان يراه احدهم بصحبة شخص قذر زرى الهندام ! . ومع ذلك ، كان « تد ثورنهل » طيب القلب ، حسن السريرة !.

فقطعت الكلام على ابنى وسألته: « ماذا تقول يا جورج ؟ ثورنهل ؟! اذن ، فلا بد من من ان يكون «ثورنهل» هذا صاحب بيتنا بالذات !!»

فصرخت السيدة آرلوند : « يا الهى ! جاركم !؟ انه صديق عائلتنا منذ زمن طويل ، واننا ننتظر زيارة منه عن قريب !»

ثم استطرد ابنى يقول : « اعطانى صديقى بذلة نظيفة جدا ، من ثيابه . وقبلنى في بيته كصديق وخادما له في آن واحد ... كان عملى ، التحدث اليه ، والجلوس عن يساره في العربة ، وفتح زجاجات الشراب له ، وان اغنى له عندما يأمرنى بالغناء ، وكنت اقوم ببعض الاعمال الصغيرة التى كان يود انجازها .. وكان على ـ بحكم عملى ـ ان اكون دائما ، بشوش الوجه حسن المزاج ، متواضعا على الدوام ، ـ وان أكون سعيدا ما استطعت الى ذلك سبيلا ! حتى الزمت مرة ، ان اقاتل رجلا ، كان قد اساء السيد ثورنهل الى عفاف اخته ، ـ كما قيل لى ـ ! وقد ابدى لى عظيم شكره وامتنانه تجاه هذه الخدمة التى قمت بها ! ولما غادر لندن ، اعطانى كتاب توصية الى عمه الوجيه النبيل السر وليام ثورنهل !..

« حملت الرسالة الى السر وليام ثورنهل ، هذا الرجل المعروف لدى الجميع ، وفي كل مكان من بلادنا ، بفضيلته وصلاحه ، وبكونه اطيب الناس نفسا واكثرهم ظرفا ولطفا !

« قرأ الرسالة ·· وبعد توقف بضع دقائق ، التفت الى وقال : « لقد قاتلت من اجل قريبى ، وتأتى الى ،منتظرا ان اكافأك على ما قمت به من «خدمات» من اجل سفالته واثامه ؟ انى امتنع عن تقديم اية مساعدة لك! وارجو ان يكون امتناعى عن مكافأتك عقابا لك على جرمك !! بل بالاحرى، ارجو ان يحملك امتناعى هذا على التوبة والندامة !»

« ولما تركت منزل السر وليام ثورنهل ، قابلت صديقا لى ، وكان ربانا لاحدى السفن ، فقال لى :

« ان سفينتى ستقلع الى هولندا يوم غد ، والسفرة قصيرة وممتعة ومريحة ايضا ، فهلا سمحت لى بان ادعوك الى مرافقتى كاحد المسافرين ؟ وكل ما عليك القيام به ، هو تعليم التلامذة الهولنديين اللغة الانكليزية ، واؤكد لك ، انك ستحاط بعدد كاف من التلاميذ وستكسب قدر من المال لا بأس به !

« فطنت ، بعد وصولى هولندا ،شيئا كان من الواجب تذكره قبل ذلك ··· تذكرت انه ان كنت ارغب في تعليم الهولنديين اللغة الانكليزية من الواجب ان يعلمونى ـ اولا اللغة الهولندية ···

« ثم التقيت بطالب عائد من جامعة «لوفان» وعلمت منه ، انه لا يوجد في تلك الجامعة من يفهم اللغة اليونانية ·· وللوقت ، عقدت النية على السفر الى لوفان ، لعلى اكسب عيشى عن طريق تعليم اللغة اليونانية ···

« وصلت لوفان ، ثم اتجهت توا الى مكتب رئيس الجامعة ، فرأيته جالسا في مكتبه ، خلف منضدة يكتب عليها وحوله عدد كبير من الكتب ··· فعرضت عليه خدماتى ، كمدرس للغة اليونانية ···

« فاجابنى قائلا : انى لم اتعلم اليونانية ، ومع ذلك ، لم اشعر قط بانه فاتنى شيئا منها ··· ثم ان مكتبتنا مزدانة بكتب لا يحصى لها عدد ، مكتوبة كلها باللغة اليونانية ،ومع ذلك ، فانى لا اقرأ شيئا منها ··· وقد نلت درجة دكتوراه ، دون ان اتعلم كلمة يونانية واحدة !! وآكل بشهية عظيمة ، بدون اللغة اليونانية ··· وبالاختصار ، فانى لا اعرف اليونانية ، ولا اعتقد بوجود خير فيها !»

« ثم ادار بوجهه الى المنضدة ،واستأنف الكتابة !··

«كان عندى المام بالموسيقى ،وصوت لا بأس به ··· ولقد قلت لى مرة ، يا سيدى ، ان غنائى من «النوع الوسط» وان كنت لا اقدر ان اقول

انه جيد ! ... وقد استحال ، الان، ما كنت احسبه مصدرا من مصادر التسلية واللهو ، الى وسيلة من وسائل العيش والارتزاق ..

«ان القرويين في هولندا وفرنسا فقراء ، لان ما يكسبونه من فلاحة الاراضى ، قليل جدا والضرائب ثقيلة عليهم ، ومع ذلك ، ترى افقرهم اكثرهم شوقا وحنينا الى المرح والطرب !! وكلما زاد فقرهم زاد معهم نشاطهم وحيويتهم ، وتضاعفت خفة روحهم !... فكنت حينما اقترب من بيت احد القرويين ، عند هبوط الليل ، اعزف اجمل الالحان ، فاحصل بهذه الوسيلة على مكان ابيت فيه ليلتى وعلى «صرة» من الطعام ، تكون زادا لى في اليوم التالى !..

«وهكذا كنت اضمن طعامى ومبيتى حتى اجتزت هولندا وفرنسا ، ومنها الى ايطاليا !.. وهنا توقفت عن العزف ، لان مهارتى لا تجدى شيئا في بلد يعتبر القروى فيه اطول باعا واكثر مهارة منى في هذا الفن : الموسيقى !!.

« حينئذ ، اتجهت شطر انكلترا ، وما ان وصلت ارض بلادى ، حتى عزمت ، اولا ، على ان افي حقك على بتقديم احتراماتى ، يا سيدى ، ومن ثم ، التحق بخدمة الجندية خارج البلاد ، حيث القتال دائر .. فالتقيت اثناء مجيئى ، باحد المعارف القدماء ، كان قد انضم الى فرقة للتمثيل تجوب انحاء الريف !»

— ٢٠ —

كان ابنى قد اوشك على انهاء قصة مغامراته ، عندما ظهرت عربة فخمة تدنو من البيت .. كانت هذه العربة عربة السيد ثورنهل بالذات .. وقد اخبرنى الساقى ، همسا — بناء على الصداقة التى عقدت اواصرها بينى وبينه — ان السيد ثورنهل ، كان يطارح الانسة ويلموت الغرام ، وبان عمتها وعمها لم يحاولا ايقافه عند حده بل لعلهما راضيان عن ذلك كل الرضى !!

دخل السيد ثورنهل ، واذ وقع نظره على وعلى ابنى اجفل ، وبدا عليه الفزع ! ولكن لما تقدمنا لتحيته، رد تحيتنا باسلوب ودى خالص !

وبعد ان تناولنا الشاى ، دعانى السيد ثورنهل على انفراد ليسالنى

عن ابنتي .. فلما اعلمته ان كل محاولاتي لاستقصاء امرها ذهبت سدى ، اخذته الدهشة وتملكته الحيرة ! ثم سألني ان كنت قد اطلعت الانسة ويلموت او ابني على النكبة التي المت بابنتي اوليفيا، فاجبته سلبا ! عندئذ ، ابدى موافقته على تحذري وحسن تبصري ، ثم توسل الى مستعطفا ، ان اكتم القضية كتمانا شديدا ، ثم قال : «اني الح عليك ان تطوي القضية لمصلحتك انت .. لانه لا فائدة للانسان من افشاء عيوب نفسه واذاعة فضائحه ... ولعل الانسة اوليفيا ليست مذنبة ، كما تتصور !..»

قطع علينا الحديث احد الخدم ، اذ جاء حاملا رجاء من السيدات يطلبن الى السيد ثورنهل مشاركتهن الرقص ، فتركني فورا ، وقد سرني جدا اهتمامه الظاهر بشئوني ومصالحي الخاصة !..

اما تودده الى الانسة ويلموت، فكان اوضح مما يستطاع احتمال الخطأ فيه !! الا انها لم تكن جد مطمئنة الى ذلك ، وقد سمحت به نزولا عند رغبة عمتها ، لا استجابة لرغباتها وميولها الشخصية ! والذي سرني كثيرا ، ما لاحظته على الانسة ويلموت من انها كانت تخص ابني بنظرات الطف وارق من تلك التي كانت تخص بها السيد ثورنهل ، رغم ثروته وجاهه ورعايته الخاصة لها ! غير ان السيد ثورنهل لم ييأس ولم ينزعج ، بل على العكس تماما ! فقد كانت صداقته لابني تتزايد يوما بعد يوم مع تزايد الرقة والعطف اللذين كانت الانسة ويلموت تظهرهما لابني جورج

في صبيحة يوم رحيلنا جاءني السيد ثورنهل مبتهجا ليعلمني بانه اذى خدمة لصديقه جورج ، وذلك بتعيينه ضابطا في كتيبة من الجنود مسافرة الى جزر الهند الغربية ، وان جورج نفسه سيسافر معها ايضا ، في اليوم التالي .. لكي يتأكد من ان العمل قد امن عليه تماما ...

استأذنت العائلة المحترمة ، التي اضافتني ، بالانصراف وودعت السيد ثورنهل مع عبارات الشكر والامتنان لاجل لطفه وفضله علينا ، ثم يممت وجهي شطر بيتي ، قانطا من لقاء ابنتي ثانية !! كانت الريح صرصرا ، فتدثرت بجبتي تدثرا محكما ، وادرت بنيقتي حول عنقي تماما .. ومع اني ما زلت ، آنئذ ، اشعر بوهن في جسمي الا انني كنت اعزي نفسي باللقاء سريعا بمن اعتبرهم اعز الناس لدي ..

لما اقبل الليل ، دخلت فندقا صغيرا قائما على جانب الطريق العام، وطلبت الى مديره مشاركتي في زجاجة من النبيذ .. تناولنا مختلف

المواضيع في حديثنا ، الى ان جئنا ،مصادفة ، على ذكر السيد ثورنهل ، الاقطاعي الشاب ... فقال لي مدير الفندق ، ان السيد ثورنهل مكروه جدا ، ـ ولكن بالنظر لكون السر وليام ثورنهل عمه ، يحبه الناس حبا جما ... ومما ذكره لي بخصوص الشاب ثورنهل ، انه يغدر بالبنات الذين يدعونه الى بيوتهم لاضافته والترحيب به !! وفيما نحن كذلك دخلت علينا زوجة مدير الفندق وصرخت في وجهه قائلة : « انك تعاملني معاملة سيئة يا سيدي ، ولاطاقة لي على احتمال اكثر مما احتملت من بلادتك ! لقد انهيت ثلاثة ارباع العمل المتروك لي ، اما الربع الاخير فقد ترك على حاله غير منجز : بينما تجلس انت عاطلا ، لا هم لك سوى معاقرة الخمرة طوال النهار مع الزبائن ! فكيف بالله ، تستطيع اكتساب المال او الحصول على الربح بهذه الطريقة ؟! ام انك تؤثر ادارة عملك بدون ربح ، او بالاحرى، بخسارة !؟» .

عندئذ ، سكبت لها قدحا من النبيذ ، فتقبلتها مني باحناءة وتمنت لي صحة جيدة ... ثم التفتت الي وقالت :

« ان الذي يغضبني ، يا سيدي ،ليس الربح الذي نخسره ، وانما حقيقة كون فندقنا صائرا الى الافلاس والخراب !! فان كان ثمت زبائن يتمنعون عن دفع حسابهم ، فالتي تطالبهم به وتجبرهم على الدفع ، هي انا ! اما هو ، ـ تشير الى زوجها ـ فيفضل بالاحرى ان « ياكل » كأسه على ان يلاحقهم !..

« لقد جاءتنا ، اليوم ، امرأة شابة لتبيت ليلتها عندنا ، واعتقد انها لا تملك بنسا واحدا ! انها بطيئة بالدفع جدا ! افلا تعتقد بانه يجب علينا تذكيرها بذلك »؟ .

فاجابها زوجها : « وما الفائدة من تذكيرها ؟ .. اذا كانت بطيئة في الدفع ، فالدفع اذن ، محقق !»

فصرخت الزوجة : « محقق ! لقد صممت على تسلم المال منها اول الليلة هذه بالذات ! والا ساضطر الى طردها من هنا بقضها وقضيضها !»

حينئذ صرخ الزوج : « تبصري قليلا ، يا عزيزتي ، انها سيدة فاضلة وجديرة بكل احترام !»

فقالت : « سواء أكانت فاضلة ام لم تكن، يجب ان تخرج من هنا حالا!» قالت ذلك ثم اقتحمت المطبخ ومنه ارتقت السلم الضيقة الموصلة الى

الغرفة فوقنا ، وكان باستطاعتي ، وبكل ارتياح ، ان اتميز صوتها بوضوح تام ، ومن ضراوته وخشونته قدرت ان ادرك فشلها في الحصول على اي مال من نزيلة فندقها .. واخيرا صاحت بجفاء ، قائلة : « ادفعي حسابك كاملا والا اخرجي في الحال ! ماذا ؟ ايتها المخلوقة الفاجرة !؟ اتأتين للاقامة في فندق شريف ، دون ان تحملي قطعة واحدة من النقود معك !؟ اخرجي ! اقول لك اخرجي !!

فقالت السيدة الغريبة : « ايتها السيدة الكريمة ! ارثي لحال مخلوقة مسكينة عاجزة !.. وارحميها واسمحي لها بالمبيت هذه الليلة فقط !.. والموت كفيل بان يريحك منها الى الابد !!»

وحالا ، عرفت ان الصوت لم يكن الا صوت ابنتي المحظية المسكينة ( اوليفيا ) ! فاسرعت الى نجدتها ، بينما كانت المرأة تجرها من شعرها ، فاخذت المخلوقة المخذولة البائسة ، بين ذراعي ، وصرخت : « اهلا وسهلا باعز من ضل من اولادي !! اهلا بالكنز المفقود ! الى حضن ابيك الشيخ المسكين !!»

«آه ، يا والدي !» قالت ذلك ، وبقيت بضع دقائق لم تستطيع فيها ان تنطق بحرف ... ثم نظرت الي كالسكرى ، وقالت « آه ، ياعزيزي ! من ارى ! أوالدي الصالح نفسه ؟! ياعز الناس لدي !.. هل يقد رملاك من السماء ان يكون الطف منك وارحم ؟! لماذا لا تلعنني ؟! لماذا لا تنحى علي باللائمة ؟! هذا السافل الدنيء ! اني أمقته ... وادينه .. وادين نفسي ، انا ايضا !! اني لك ان تصفح عني ؟! انا اعرف انك لا تقدر على ذلك !!

ـ «بلى ، يا ولدي ، اقدر ان اصفح عنك من اعماق قلبي ..» ثم انتحيت بها مكانا في غرفة خاصة ، حيث نستطيع ان نتحدث بحرية اكثر ..

فقلت لها : «انه ليدهشني ان شخصا كالسيد برتشل ، المعروف بحسن ادراكه وظاهر شرفه ، ان يكون مجرما ، سافلا ، نذلا ، خسيسا !»

فقطعت على الكلام قائلة : «انك لترتكب خطأ ، يا ابت العزيز ! ... ان السيد برتشل لم يحاول قط خداعي ، بل كان ينتهز كل فرصة سانحة يحذرني فيها من الوقوع في حبائل السيد ثورنهل ومؤامراته !!»

ـ «السيد ثورنهل ؟! هذا غير ممكن !!»

ـ «اجل ، يا سيدي ، ان الذي خدعني وراودني عن نفسي هو السيد

ثورنهل نفسه!! لقد استخدم سيدتين كانتا فعلا من لندن ـ لاخذنا معهما الى لندن بوصفنا «مرافقتين» لهما !لكن رسالة السيد برتشل قد افسدت عليهما الخطة الشائنة التى رسمتاها وكشفت عن حقيقة شخصيتهما ! انى مقتنعة تمام الاقتناع ، بان السيد برتشل كان اخلص الاصدقاء واكثرهم غيرة على !!»

فصرخت عندئذ ، «ان كلامك هذا قد ملأنى حيرة ودهشة ! ولكن ، قولى لى ، يا ولدى ، ما هى المؤامرة التى مكنت السيد ثورنهل من خداعك والمكر بك ؟؟»

ـ «ان الاحتفال بعقد قراننا قد جرى سرا !..»

ـ «ماذا تقولين ؟! هل عقد القران، حقا ، من قبل احد الكهنة ، وبمقتضى شعائر الكنيسة المقدسة ؟!»

ـ «نعم ، يا سيدى ، قد تم ذلك فعلا !!»

ـ «اذن ، انت الان زوجته ؟!»

ـ «ولكن يا للاسف يا بابا ! لم يكن الزواج شرعيا ، لانه لم يكتب على الاوراق الشرعية اللازمة ... ان القران اذا تم سرا ، فمن الضرورى ـ كما تعلم ـ الحصول على رخصة شرعية يسمح بموجبها عقد مثل هذا القران ... ولما كان السيد ثورنهل لم يحصل على رخصة شرعية تسمح له بالاقتران بى ، لذلك ، لم اكن زوجة شرعية له !!..

«هذه هى المؤامرة التى خدعنى بها ... ولكن ما مر من الزمن الا القليل حتى تبين لى اننى لا استطيع ان اثق باخلاص محبته الا قليلا جدا ، اى بقدر ما كان يبديه لى ... وما عتم ان ملنى ، وبدأ يتأفف من مجرد رؤيتى .. وكان يزداد سفاهة وتصلفا يوما بعد يوم ... وكنت اقترب من هاوية التعاسة والشقاء اكثر فاكثر ... ثم رغبت في الافتراق عنه ... ولما اعلمته بذلك ، قدم لى كيسا من الدراهم ! فكانت تقدمته هذه ، اعترافا منه باهانته لى وازدرائه بى !!وهل هنالك استهانة بشرف امرأة وكرامتها وعزة نفسها اعظم من ان تبيع حبها واخلاصها بالمال ؟! فما كان منى الا ان قذفته بالكيس تحت تأثير الغضب الشديد ، على وقاحته وخساسة نفسه !! ثم استقللت عربة ، كانت مارة من هناك .. حتى انزلتنى هنا في هذا المكان !..»

في صباح اليوم التالى ، انطلقت في طريقى الى البيت .. وكنت كلما تقدمنا في سيرنا ، احاول ان اهدىء من روع ابنتى «اوليفيا» واخفف عنها احزانها ومخاوفها ، وامدها بالقوة وبالتجلد لمقابلة امها المتكدرة المسكينة ... فاكدت لها بانها لن تلاحظ اى تغيير في محبتى وعواطفى نحوها ، وان بامكانها الاعتماد على كحارس لها وصديق وولى امرها ما حييت !.. وما طوينا بضعة اميال من سفرتنا ، حتى استكنت وهدأ جاشها ..

ولما دهمنا الليل ، توقفنا في فندق يبعد عن البيت حوالى خمسة اميال ، فرغبت في تهيئة العائلة لاستقبال اوليفيا .. لذلك عزمت على تركها في الفندق تلك الليلة ، على ان اعود اليها في الصباح الباكر من اليوم التالى للاتيان بها الى البيت ..

بعد ان امنت لها غرفة جيدة في الفندق ، عانقتها وقبلتها بكل حنو ابوى ، ثم يممت وجهى شطر البيت ... وكنت كلما دنوت من ذلك المسكن الهادىء الامين ، اشعر بالفرح يملاء قلبى !.. وكما يحوم الطير حول عشه ويرفرف فوقه كأنه خائف عليه من الاذى ، هكذا كانت افكارى تتقدمنى في مسيرى البطىء ، وتحوم حول «موقدى» الصغير .. استذكرت الاشياء الجميلة التى كنت احب ان اقولها ، وفكرت بالاستقبال الذى سألاقيه فاحسست ، مقدما ، بعناق زوجتى اللطيف ، وابتسمت لفرح ولدى الصغيرين ! ..

مر الهزيع الاول من الليل .. وكان العمال قد آووا جميعا الى اسرتهم طلبا للراحة ... وقد اطفأت الانوار في الاكواخ جميعها وكان السكون يعم المكان ، فلم اسمع صوتا او نأمة ، الا صياح الديكة ونباح الكلاب على بعد ...

دنوت من مسكنى الصغير ... ولما صرت على مسافة مائتى ياردة منه ، اسرع كلبنا الامين راكضا نحوى ، وهو ينبح نباحا قويا مزعجا !...

كان الوقت نصف الليل ، عندما قرعت باب بيتى ، وكان كل شىء ساكن هادىء ... فاحسست بالسعادة تملاء قلبى !.. ولكن ما أعظم ما كانت دهشتى عندما رأيت البيت يلتهب ! وقد استحال كله من الداخل ، شعلة من نار امتدت السنتها الى النوافذ ، حتى بدت هذه حمراء من شدة اللهب !! فندت عنى صيحة عالية مدوية ، وارتميت على الارض

فاقد الوعى !! حينئذ ، هب ابنى موسى من رقاده مذعورا لدى سماعه صرختى ، واذ رأى السنة اللهب ايقظ زوجتى وابنتى ، فخرج الجميع نصف عراة ، وقد اخذ الخوف منهم كل مأخذ ، مما اعادنى الى رشدى ..

كانت السنة النار قد امتدت الى السقف .. فاخذ ينهار كتلة بعد كتلة !! . اما العائلة ، فقد وقفت تتطلع واجمة ساهمة !.. نظرت اليهم ... منقلا بطرفي هنا وهناك ، لعلى ارى ولدى الصغيرين ، لكننى عبثا حاولت رؤيتهما ! فصرخت :

«اين ! اين هما ! ولداى الصغيران؟!»

فاجابت زوجتى بكل هدوء : «لقد ذهبا طعما للنار ... وسأموت معهما ، انا ايضا !!»

وللوقت سمعنا صراخ الطفلين داخلا ، اذ كانت النيران قد ايقظتهما ! فصرخت : «اين انتما يا ولدى !» ثم اندفعت الى الداخل ، وسط النيران ، واقتحمت الغرفة التى كانا قد حبسا فيها ، وصرخت مناديا : «اين انتما يا ولدى ؟!» فصرخا معا «هنا ، هنا نحن يا بابا العزيز !»

كانت النار قد امتدت الى اطراف الفراش الذى كانا نائمين عليه عندما حملتهما وعدوت بهما وسط اللهب !.. وما كادت قدماى تطآن عتبة الباب ، حتى انهار السقف بكامله !!

فصرخت وانا حاملا ابنى بيدى : « والان لتستعر النيران ما شاء لها الاستعار ، ولتأت على مقتنياتى كلها ، لقد انقذت كنوزى وهذا حسبى وكفى !» ثم حضنت ولدى العزيزين وقبلتهما «الف قبلة وقبلة» وكانت امهما تضحك حينا وتبكى حينا اخر ! والجدير بالذكر ، ان امتعتنا كلها (مع الدراهم التى كنا قد ادخرناها لمستقبل ابنتينا) قد ذهبت ماكلا للنار !!

لقد امدنا الجيران بالثياب ، وفرشوا احد الاكواخ في الحديقة قرب بيتنا ، واعارونا بعض القدر ورواوانى الطهى الضرورية .. وما ان اصبح الصباح ، حتى تهيأ لنا مسكن صغير حقير ، نأوى اليه !!

واذ ذاك ، تقدمت لتهيأة العائلة لاستقبال الابنة الضالة .. الا انه لم يبق لدينا شيء نقدمه لها ، سوى البؤس والشقاء !.. ومع ذلك ، احببت ان ارحب بها في كوخنا الحقير ، « لتعيش معنا وتخوض جهادنا !»

وحيث ان كتفى وذراعى قد اصيبا بحروق موجعة ، اثناء عملية انقاذ ولدى الصغيرين فقد انتدبت ابنى وابنتى للاتيان باوليفيا الى البيت ..

وفي غضون ذلك ، حاولت استرضاء امها وحملها على محبة ابنتها والصفح عن زلتها ، لكننى لم استطع تماما ، ان اوفق بينها وبين ابنتها الخاطئة المذنبة !.. ان النساء ابعد من الرجال في الصفح عن سيئات غيرهن من النساء ... والمصالحة الحقيقية لا يمكنها « السير » في طريق لم يعبدها الصفح والغفران !..

عاد ابنى موسى وابنتى صوفيا ، يسندان اختهما الخاطئة الشقية . وكانت من الخجل والاستحياء الشديد ، بحيث لم تتجرأ قط على النظر الى امها !!

حينئذ ، قالت لها امها : « آه ياسيدتى ، لم تقصدى الا مكانا حقيرا ، انت التى دانت لك عوامل الابهة والجاه والسعادة والثراء !.. اما نحن ، انا وابنتى صوفيا ، فاننا لانستطيع ان نقدم الا القليل من اسباب الترفية والسعادة والضيافة ، لمن كانت في عشرة النبلاء وذوو الوجاهه ، المتقلبين في اعطاف البذخ والترف نعم ايتها الانسة اوليفيا ! لقد عانينا الكثير من المتاعب ، والشقاء ، مؤخرا ، ومع ذلك ارجو ان يسامحك الله ويغفر لك ذنوبك ! »

وقفت المسكينة اوليفيا ، شاحبة اللون ممتقعة ، وقد سرت الرعدة في مفاصلها ، لا تجد الى البكاء سبيلا ولا الى الجواب دليلا !.. عندئذ لم استطع البقاء هكذا صامتا متفرجا على هذه المخلوقة البائسة المكروبة فقلت لزوجتى بحدة :

« ارجوك ايتها الامرأة ، ان تستمعوا جميعا الى كلماتى ، وان تذكروها الان وكل اوان .. لقد جئتك الى هنا بابنة شريدة ضاله مخدوعة !.. وان عودتها الى واجبها نحو عائلتها ، تتطلب محبتنا لها وعطفنا عليها !.. هذا ، وان مشقات الحياة وشدائدها الحقيقية تزحمنا سريعا وتدهمنا دهما ... فلنتعاهد ، اذن ، على ان لا نضاعف مشقاتنا والامنا بمخاصمتنا بعضنا بعضا .. فاذا استطعنا ان نتحد معا لنعيش بانسجام ووفاق ، يمكننا آنئذ ، ان نكون قانعين مسرورين !.. ان الله قد وعد الصابرين والتائبين بفضله وكرمه .. فلنقتد بهذا المثل ، عسى الله يوفقنا ويفرج كربنا !... ان ايقاع القلوب البشرية لا عذب انواع الموسيقى واحلاها على اذنى الله سبحانه وتعالى !!..

لم يكن سهلا جعل مسكننا الجديد ملائما للسكن فيه ، بل اقتضى ذلك بعض الجهد الشاق المرهق ، ولكن سرعان ما استعدنا حياتنا السابقة الهنيئة المطمئنة وعشنا فرحين مغتبطين

لكن اوليفيا استمرت على حزنها وكآبتها ، وكانت تذوب اسى يوم بعد يوم ، وكانت حياتها تدنو من شفير الهاوية ، تحت وطأة الحرقة والشقاء! فكانت اذا وجدت نفسها بين ظهرانينا ، تخشى التحقير والازدراء ، ... واذا انكمشت في غرفتها واخلدت بنفسها في خلوتها ، استسلمت الى الغم والكدر وناءت تحت ثقل افكارها المحزنة !!

ما زالت ابنتي سليبة الشقاء ، تذوب لوعة ، واسى ، عندما بلغنا خبر مؤداه ، ان السيد ثورنهل على اهبة الاستعداد للتزوج بالانسة ويلموت !! مما زاد في كرب اوليفيا ولوعتها ، فحزمت امرى على التاكد من الخبر والتثبت من صحته ثم ، على ابطال خطته والحيلولة دون تحقيق هذا الزواج !.. من اجل ذلك بعثت برسالة مع ابني موسى الى السيد ويلموت ، اطلعه فيها على تصرف السيد ثورنهل المشين تجاه عائلتي !.

لقد خاب فألي ، اذ عاد ابني موسى دون ان يستطيع تسليم الرسالة الى السيد ويلموت ، لغيابه — يومئذ — عن البيت ! ثم حدثنا موسى عما علمه من رحلته هذه قال :

« ان السيد ثورنهل والانسة ويلموت سيتزوجان بعد بضعة ايام ... وقد ظهرا في الكنيسة معا ، ويخرجان سوية كل يوم ، للتنزه راكبين .. وقد رأيت اصدقاء العائلتين هناك ، منهم السر وليام ثورنهل — عم الاقطاعي الشاب — .. وقد انتاب الجميع الفرح والسرور .. ولا شيء يشغلهم سوى المرح والانبساط والولائم قائمة على قدم وساق ، كان ايامهم اعياد !؟.. وانك لتسمع هناك ، جميع الناس ، يطرون على جمال العروس الشابة ويثنون على بهاء منظر العريس ، ويبالغون في مدحه ويقولون ، ان الواحد منهما كلفا بالاخر ومولع به الى حد كبير !!» . ثم قال لموسى في نهاية كلامه «.. فلم املك نفسي ، عندئذ من الاعتقاد بان السيد ثورنهل هو اسعد مخلوق على وجه الارض !»

فامتلاء قلبي شفقة وحنانا على ابنتي الشقية البائسة !!

كان الجو وضاء شامسا صبـــاح اليوم التالى ، فعزمنا على تناول طعام الفطور في الحديقة ٠٠ وما كدنـــا ننتهى من الفطور ، حتى ذعرنـــا جميعا لدى رؤية عربة السيد ثورنهل عن بعد ، متجهه نحونا !٠٠ وللوقت نهضت اوليفيا مع اختها (صوفيـــا) وعادت الى البيت ، رغبة منها فـــى تحاشى رؤية من غدر بها وشقاها ٠٠

واذ ترجل السيد ثورنهل مـــن عربته ، تقدم الى حيث كنت بعـــد جالسا ، واستفسر عن صحتـــى ، متكلفا الالفة والصداقة الاعتياديتين !؟

فاجبته : « ان وقاحتك ، ياسيدى ، تجعل اخلاقك تبدو اكثر حطـــة ونذالة في نظرى !٠٠ لقد مر الزمـن الذى كنت استطيع فيه ان اعاقبـــك على عتوك واهانتك لنا ، بتجرؤك على الظهور امامى !٠٠ اما الان ، فانـت في مأمن منى ، لان الشيخوخة قـــد خففت من حدتى وحرارة عواطفـــى ، فضلا عن ذلك ، فان طغمة القيسوسة ترد عنى عن الحاق الاذى بك !٠٠»

فرد السيد ثورنهل : « ان كلامك ليدهشنى حقا ! بل لست افهم مـــاذا تعنى ؟! وارجو انك لا تعتبر رحلـــة ابنتك الاخيرة معى ، عملا جنائيـــا مخلا بالشرف والتقاليد !!»

فصرخت به : « اغرب عن وجهى ، ايها الوغد ! ما انت الا نذل حقـــير في شخصه كذاب منافق في كل طرقه !! لقد اتعست مخلوقة مسكينة واشقيت حياتها ولطخت سمعة عائلة لـــم تعرف في الماضى الا الشرف شعـــارا لها ، لكى تشبع شهوتك الدنيئـــة الحقيرة !!»

فاجاب ، مدافعا عن نفسه : « ان كنت انت او ابنتك قد عزمتما على ان تعيشا شقيين بائسين ، فلا حيلـــة لى بذلك !٠٠ ولكن يمكنكما ان تكونا سعيدين ، اذ نستطيع ان نـــزوج ابنتك برجل آخر ، في وقت قصيـــر ، وتستطيع هى في الوقت نفســـه ، ان تستبقى عشيقها الى جانبها ! لانـــى احتج على انه بامكانى الاستمرار فى الاهتمام بها اهتماما حقيقيا !!»

عندئذ ثارت ثائرتى لدى سماعـى هذا الاقتراح المهين !٠٠ قد يتحمـل الرجال ، احيانا ، آلام جرح بالـــغ او ضرر من الاضرار ، بصبر وتجلد ، ٠٠ الا انهم يئنون ويصرخون اذا ما اصابتهم نخسة بسيطة او لسعـــة حشرة صغيرة !٠٠ وهكذا اصابنـــا من هذا الرجل ضرر بالغ ، فتحملناه بصبر وطول اناة ٠ الا ان اهانتـــه البسيطة هذه قد وخزتنى فاثـــارت في راقد جاشى ، فصحت في وجهـــه : « اغرب عن نظرى ، ايها « الشىء »

النذل ولا تستمر على اهانتى فى حضورك !! آه ، لو كان ابنى الباسل الشجاع هنا ، لما تحمل هذه الاهانة ، لكنى رجل قد هده المرض فأعجزه ونالت منه الشيخوخة فخارت قواه ووهنت عزيمته !!»

فقال السيد ثورنهل : « انك تضطرنى الى استعمال الكلمات النابية والالفاظ الخشنة خلافا لما عزمت الامر عليه ... لقد بينت لك ما يمكن ان يرجى من صداقتى ... اما الان فترانى اقدم لك ما يمكن اعتباره نتائج غضبى عليك !! لقد اعطيت احد الدائنين صكا اقرارا منك بالمال الذى استقرضته منه ، وقد دفعت انا الدين الذى عليك . وبالتالى تحول الصك الى .. وها هو الان في حوذتى ! .. لذلك ، اعتبرك مدينا لى !.. فاذا كنت عاجزا عن دفع المبلغ الذى عليك ، فسأمر بالقائك في غياهب السجون !.. هذا ، وانك مدينا لى ايضا ، باجرة البيت ، فان لم تدفع لى هذا ايضا ، فستصادر جميع مواشيك وامتعتك !.. ومع ذلك ، اود ان اؤدى لك ولابنتك خدمة بدعوتكما لحضور حفلة زفافى ... وهذه الدعوة ليست منى فقط ، بل من الانسة ارابلا الفاتنة بالذات !.. واخيرا ، ارجو ان لا ترفضا دعوتنا !»

فاجبته : «اسمعنى ، ايها السيد ثورنهل ، للمرة الاخيرة ، واصغ الى كلامى ، ان زواجك بغير ابنتى ، امرلا ارض عنه ولن اوافق عليه ابدا ؛ وسواء أأجلستنى صداقتك على العرش ، او هوى بى غضبك الى الحضيض ، فكلاهما محتقر عندى ومرذول !الا ترجون صداقتى بعد الان ! اذهب واقتنى ما منحك اياه القدر من جمال وثراء وصحة وسرور! .. اذهب واتركنى للعوز والعار والمرض والحزن !.. ولكن مهما تذللت ، فان قلبى قمين بالحفاظ على عزته وكرامته !.. ومع انك نلت الصفح منى ، فان ازدرائى بك سيلاحقك ابد الدهر !...»

فقال: «ستلمس مغبة هذه الوقاحة ، وسترى قريبا من منا اجدر بالازدراء والاحتقار : انت ام انا !!» قال هذا ثم استدار على عقبه ومضى ..

لم يتهددنا السيد ثورنهل عبثا ، اذ ما كاد يصبح اليوم التالى ، حتى رأينا وكيل املاكه يأتى الينا ويطلب اجرة البيت السنوية لانها لم تكن تدفع كل شهر بل كل سنة ، ... وكنتيجة لعجزى عن الدفع ، فقد استاق الوكيل قطيع الماشية وعرضه للبيع في السوق فبيع بنصف ثمنه !.

وفي اثناء الليلة التالية اثلجتنا السماء كثيرا ، فعمل ابنى في صباح اليوم التالى على ازالة الثلوج المتراكمة ، ليشق الطريق الى بيتنا .... وما

مر طويل وقت على انهماكه في هـذا العمل ، حتى هرول الينا ، ممتقع الوجه ،ليخبرنا بان رجلين غريبين ـ وقد عرف انهما موظفين في الدائرة العدلية ـ قادمين الينا !..

وما كاد ينهى كلامه ، حتى دخلا الينا ، واقتربا من الفراش الذى كنت ممدا عليه ، واخبرانى بالمهمة التى كلفا بها ، ثم اعتبرانى سجينهما ، وامرانى بالاستعداد للذهاب معهما الى السجن الواقع على بعد احدى عشر ميلا من بيتنا !!

فقلت لهما : « ايها الصديقان ، ان الجو الذى جئتمانى فيه للذهاب معكما الى السجن ردىء للغاية!.. وان ذراعى الواحدة مصابة بحرق بالغ مما سبب لى حمى طفيفة او ارتفاع فى درجة الحرارة عندى !.. وليس عندى من الثياب ما يكفى لوقايتى من البرد وانى لاضعف من ان استطيع السير معكما بعيدا على هذه الثلوج الكثيفة !.. ولكن ، ان لم يكن للامر بد ...

ثم التفت الى زوجتى واولادى ،وامرتهم جميعا ، بان يجمعوا ما بقى لنا من الاشياء والامتعة القليلة ، وان يتهياؤا لترك هذا المكان في الحال !

— ٢٣ —

سرنا الى الامام سيرا وئيدا لاننى كنت ضعيفا منهوكا ، وقد هدنى المرض ، واوهنتنى الشيخوخة ،فلم استطيع المشى سريعا . اما اوليفيا ، فقد اضعفتها حمى كانت قد انتابتها سحابة ايام ليست قليلة ، فاقضت مضجعها وذاد عنها النوم ليالى عديدة،فتكرم احد الموظفين واركبها على حصانه .. وكان ابنى موسى ممسكا بيد احد ولدى الصغيرين ، والام ممسكة بيد الاخر ، بينما سرت انا مستندا الى ذراع ابنتى الصغرى ..

كنا على مسافة ميلين من مسكننا ، لما رأينا جمعا من الناس يتراكضون ويلغطون ورائنا ، وكان عددهم يربو على الخمسين من سكان القرى ، الذين اعتادوا حضور الصلاة صباح كل احد في الكنيسة التى كنت اعظهم فيها ! ثم هجموا على موظفى العدلية واشبعوهما ضربا وسبا واقسموا ان لا يسمحوا لقسيسهم بالذهاب معهما الى السجن ! وكانوا على وشك ان يعاملوهما معاملة قاسية جدا !والحق ان الامر كان سينتهى بالموظفين

الى قتلهما معا ! لولا توسطى بين هذا الجمهور الساخط ، حتى انقذتهما ! فصرخت بهم :

« ما هذا ايها الاصدقاء ؟! هل بهذا تظهرون محبتكم لى ؟ اهذه هى الطريقة التى تبدون فيها طاعتكم لوصايـاى وتعاليمى التى تضمنتها مواعظـى لكم ؟! اتريدون ان تعارضوا وتقاوموا مجرى العدالة والقضاء فتجلبوا الدمار على وعلى انفسكم ؟!»

عندئذ ، ندموا على فعلتهـم ، فترقرقت الدموع في عيونهم وتقدموا الى واحدا واحدا وودعونى ، فصافحتهم جميعا بكل حنو وباركتهم ..

وصلنا البلدة قبل حلول الليـل ببضع ساعات ، فنزلنا في فندق ، ثم تناولنا العشاء بابتهاجنا المعهـود ! وبعد ان حجزت لهم مخادع لائقـة بهم ، وآووا الى فراشهم عندئذ ذهبت الى السجن ، وكان هذا مؤلف مـن طابق واحد كبير ، عززت نوافذه بقضبان حديدية متينة ، وبلطت ارضـه الحجارة ... علاوة على ذلك ، فقد كان لكل سجين غرفة صغيرة منعزلة عن سائر الغرف ، وهى بشكلها اقرب الى صومعة منها الى غرفة !!

عند دخولى السجن ، لم اكن انتظر ان اسمع سوى النحيب والبكـاء والعويل واصوات البؤس على اختلاف اشكالها والوانها ! لكن الامر كـان على العكس تماما ! فقد كان السجناء يحاولون نسيان تعاستهم وشقائهم الضحك والمرح !! لقد كان الحـال ، حقا ، عكس ما كنت اتوقع !!

فقلت لنفسى : « مـن اين لهؤلاء الاثمين هذه البهجة وهذا السرور ؟؟ فهل يعقل ان اخانفهم فاستسلم للحزن والشقاء ؟! انى اشعر برهبة الحبس كما يشعرون تماما ، بل ان هنالـك من الاسباب ما يجعلنى اهنأ بالا واسعد حالا منهم جميعا !»

لذلك ، اجتهدت ان اكون فرحـا مسرورا .. لكن انى للفرح ان يستجيب لهذا الجهد والسعى ؟!

واذ كنت قابعا منزويا في زاويـة من زوايا السجن ، مكتئبا ، حزينـا ، جاءنى احد الزملاء السجنـاء وجلس بجانبى ، ثم شرع يتحدث ..

من العادات المألوفة التى درجت عليها المباشرة بالحديث مع اى انسان يرغب فيه .. وهذه بالطبع ، عادة حكيمة ، يقبلها العقل ويسلم بها ، لانـه اذا كان حديث جليسى جيدا ، افيـد منه ، واذا كان سيئا ، يفيد هو مـن

حديثي .. وقد رأيت هذا الشخص القابع بجانبي مملوءا فهما وادراكا ، وسألني ان كنت زودت نفسي بفراش انام عليه .. فاجبته سلبا ..

فقال : « ان هذا من قبيل سوء الحظ ، لانهم لايعطونك شيئا ، هنا ، تنام عليه ، سوى قليل من القش او البرسيم !! فضلا عن ذلك ، فان غرفتك واسعة وباردة !.. لذلك ، يسرني ان اعيرك قسما من ملاحف فراشي ، لانه يبدو لي انك رجل شريف ، كريم النفس .. كما كنت انا في سالف الايام !!»

فشكرته على ذلك ، مقتبسا بيتا من الشعر لاحد شعراء الاغريق ، مؤداه ، ان العالم لا يمكن ان يكون محزنا حقا ، اذا استطاع الانسان ان يجد صديقا له .. قلت هذا ليعلم بأني من رجال العلم والادب .

فقال محدثي : « تتكلم عن العالم ، يا سيدي ، اليس كذلك ؟... ان العالم قد شاخ ، الا ان خلقه بقي سراغامضا ، استعصى حله على الفلاسفة في كل عصر وجيل ...» وتابع محدثي كلامه مقتبسا روائع الفكر لبعض المفكرين الاغريق واللاتين القدماء ليدعم بها اراؤه بهذا الخصوص ..

فقطعت عليه الحديث قائلا : «عفوا ان قطعت عليك كلاما مشوقا ، كهذا ، مشوبا بالعلم والمعرفة ، لا لاني اعارض اراؤك ، ولكن لاقول لك انى قد سمعت هذا الكلام قبل الان !! ألم أتشرف ، قبل الان ، برؤيتك في سوق ويلبردج العامة ؟.. اوليس اسمك الكريم افرايم جنكنسون ؟ اظن انك تتذكرني جيدا ـ الدكتور برمروز ، الذي اشتريت منه حصانا !...»

عندئذ ، تذكرني في الحال ، لان ظلمة المكان حالت دون رؤيته لقسمات وجهي بوضوح وجلاء .. فقال :

« نعم ، يا سيدي ، اتذكرك جيدا .. لقد اشتريت حصانا منك ، ولكن نسيت ان ادفع لك ثمنه .. اني لشديد الاسف ، يا سيدي ، على مخاتلتك انت واى انسان اخر !»

قال ذلك ثم عرض على ذراعيه المكبلتين بالسلاسل ، ثم اردف : انظر !.. انظر ماذا جنت على حيلي ومخاتلاتي !.. » فقلت له : « حسنا ، يا سيدي ، ان اللطف الذي اظهرته في مساعدتي ، سيكافأ في الحال .... وسأسعى قصارى جهدي ان اقنع السيد فلامبورو باسقاط دعواه ، او على الاقل ، بأن لا يؤدي شهادة عنيفة ضدك عندما يقف كشاهد امام

المحكمة .. اما بشان الشهادة التي ساؤديها ، اذا ما استدعيت للشهادة، فلا ارى داعيا لان تخاف منها !».

حينئذ صرخ كمن وجد كنـــزا : « ساقدم لك اكثر من نصف ملاحقي، وساجتهد ان اكون صديقك في السجن واعتقد بان لي بعض النفوذ هنا !..»

توقفنا هنا عـــن الحديث لمجيء السجان ، لكي ينادي السجناء ـ كل باسمه ـ او ليوصد ابواب غرفهم .. فجاءني رجل حامل حزمة كبيرة مـــن القش وقادني في ممر ضيق يؤدي الى غرفة صغيرة مبلطة بالحجارة ، ورمى بالحزمة في احدى زواياها ، حيـــث فرشت القش لاجعل منه فراشا انام عليه !...

— ٢٤ —

استيقظت صباح اليوم التالي على اصوات زوجتي واولادي ، تتهـــادى وديعة في مسمعي ، فرأيتهم في غرفتي جالسين بالقرب من فراشي ، وكانت عيونهم مغرورقة بالدمـــوع ! ...فوبختهم ، بلطف ، على حزنهم مؤكدا لهم انني صرفت ليلتي في نومة هادئـة وادعة لذيذة . لم اذق طعمها من قبل! ثم سألت عن اوليفيا ، لانها لم تكن بينهم ، فاخبروني بان مزيدا مـــن الحمى قد عاودها من جراء مشقـــات اليوم السابق واتعابه المرهقه .... فرؤى ان من الخير لها ان تلزم الفراش . عندئذ ارسلت ابني موسى لتدبير غرفة او غرفتين مجاورتـــين للسجن ،لاسكان العائلة فيهما .

بعد ان وفق ابني الى ذلك ، اخترت لكل فرد من افراد العائلة ، مـــن الاعمال ما يستطيع عمله .. فطلبت الى صوفيا ان تقوم بمراقبة صحـــة اختها والاهتمام بها ، والى زوجـــتي ان تقوم على خدمتي ، والى الولديـن الصغيرين ان يقرءا لي .. ثم التفت الى موسى وقلت له : « اما انت يـــا بني ، فستعولنا بما تستطيع يداك ان تقوم به من اعمال ، فعليك ان تبحث هذا المساء ، عن عمل ، لانه اصبـــح لزاما عليك ان تحمل الينا كل مســـاء ما يوفقك الله الى كسبه من المال !..»

بعد ذلك، تدرجت الى السجن العام حيث الهواء انقى والمكـــان ارحب ، لكنني لم امكث طويلا فيه ، لان السجناء كانوا بتصرفهم اقرب الى البهائـــم الشرسة منهم الى البشر ، فقد كـان الجو مشحونا بالشتائم ... والصراخ

الوحشي الابد .. والالفاظ النابية القذرة !! فما لبثت ان عدت ادراجي الى حجرتي متأثرا بهذا التصرف الوحشي والسلوك الجنوني ! ..

جلست افكر بهؤلاء الاشقياء الذين اذ وجدوا الجنس البشري عدوا لهم ، يسعون - دون وعي - الى جعل الله عز وجل ، عدوا ثانيا ... فشعرت انه من أوجب واجباتي ، ان احاول اصلاحهم ... فعقدت النية على العودة اليهم ثانية ، لاقدم لهم نصحي خالصا ، على الرغم من ازدرائهم واستخفافهم بي !!

ولما وجدتني بينهم ، ثانية ، اطلعت السيد جنكنسون على ما عزمت عليه من امر .. فضحك ملء شدقيه ، لكنه مع ذلك ، ابلغ الخبر للجميع ، فتقبل السجنا اقتراحي هذا بمنتهى الضحك والفكاهة ، كأنه في نظرهم ، لون جديد من الوان اللهو والتسلية !!

وعليه ، تلوت - جهرا - على مسامعهم ، جزءا من «القداس الديني» ثم القيت نظري عليهم فوجدتهم جد مرحين : - كان البعض منهم يتفوه بأقبح الالفاظ ، واخرون يئنون أنات «التوبة» بكثير من الهزء والسخرية ، واخرون يتغامزون او يسعلون او يخرجون اصواتا اخرى مزعجة ، مما تجود عليهم حناجرهم ! - كانوا يتفننون في اختراع الحيل لمواصلة ضحكهم وسخريتهم ، مع ذلك ، لم اتوقف عن القراءة !..

وبعد تلاوة كلمات الله المقدسة ، شرعت في القاء عظتي ، وفيما يلي جزء منها : -

« يؤسفني ان اسمعكم تنطقون «بلغة» مستهجنة دنسة ، كأنكم تدعون ابليس ، وتتكلمون بوقاحة وامتهان عن الله جل جلاله ! لماذا تطلبون ابليس وتخطبون وده ، مع انه أساء معاملتكم كما ترون ؟! لم يهبكم هنا سوى ما يملأ افواهكم اقساما وحلفانا وبطون فارغة ! لقد علمنا الدين والايمان .. انه لن يقدم لكم شيئا في حياتكم الثانية بعد الموت ! فاذا اساء احد البشر معاملتنا ، تركناه وتحولنا الى غيره بطبيعة الحال ... أفلا ترون مناسبا وجديرا بالاهتمام ان نجرب معاملة « سيد » اخر ، يقدم أجمل المواعيد للذين يتوبون عن اثامهم ويرجعون اليه تعالى !؟»

عندما انهيت هذه الكلمة ، تقدم الى بعضهم وصافحوني قائلين ، انى رجل شريف النفس شجاع ، ورغبوا في زيادة تعرفهم بي ، فوعدتهم بان

اعظمهم مرة اخرى ، في اليوم التالى ..

عدت الى غرفتى حيث أعدت زوجتى غداء بسيطا .. وسألنا السيد جنكنسون ان كان باستطاعته ان يضيف غداءه الى غدائنا ويتناول معنا الاكل ، لانه لم يسبق له ان تعرف الى عائلتى ، فقال :

« لم ار عائلتك قبل الان ... ان هؤلاء الاولاد اصلح واجمل من يكونوا في مكان كهذا ... واظن انى ارى هنا شخصا .. » مشيرا لى ابنى موسى ، « .. قد لحقه منى شيء من الضرر .. واحب لو انه يسامحنى !»

وللوقت ، تذكر ابنى صوت السيد جنكنسون وملامح وجهه ، وان كان قد رآه ـ سابقا ـ متخفيا وراء هيئة رجل شيخ جليل ، في حين كان في السجن يبدو شابا في مقتبل العمر :

ثم استطرد السيد جنكنسون الى القول : « كان رأسى في ذلك الحين يعلوه شعرا مستعارا .. فقد تمرست على فن التخفى والتنكر ، بحيث استطيع ان اظهر شابا في السابعة عشرة من عمره ، او شيخا في السبعين

عندئذ شد موسى على يده ، وبابتسامة مشرقة ، صفح عنه وغفر له ذنبه ..

ثم اختتم السيد جنكنسون حديثه قائلا : « لقد خدعت رجالا اكثر منك حكمه وعلما ومعرفة !.. ولكن ، على الرغم من دقة حيلى وكثرتها ، كان «الاغبياء» كثيرى العدد ، فالقوا القبض على في النهاية !» ثم التفت الى وقال : «.. على كل حال اطلعنى على قضيتك وقل لى ما الذى جاء بك الى هنا ، لعلى استطيع ا نا خلصك انت وامثالك من الاصدقاء ، وان كنت انا اقل براعة من ان استطيع ترك السجن !»

فحكيت له قصتى بكاملها .. ولما سمعها توقف بضع دقائق ، ثم ضرب جبينه بكف يده ، كأن فكرة ما خطرت له ! فوقف مستأذنا بالانصراف ، وهو يقول :

« ساري ما يمكن عمله بهذا الخصوص !»

— ٢٥ —

امضيت اربعة عشر يوما في السجن ، لم تزرنى خلالها ابنتى اوليفيا مرة واحدة وقد برح بى الشوق الى رؤيتها ، فاعربت لزوجتى عن رغبتى

في ذلك ... وفي صبيحة اليوم التالى،دخلت ابنتى البائسة المسكينة ، غرفتى مستندة الى ذراع اختها (صوفيا) . ان التغيير الذى لمحته في قسمات وجهها قد اغرقنى في ذهول شديد ! كان وجهها اشبه بوجوه الاموات ، وصدغيها قد لصقا بعظام رأسها ، وتقلصت بشرة جبينها وعلت وجنتيها صفرة الموت !.

فصرخت قائلا : «انى جد سعيد برؤيتك ، ايتها العزيزة ، لكن مالى اراك خائرة النفس مغتمه هكذا ؟! أظن ان محبتك لى ، اعظم جدا من ان تسمحى لظلمة اليأس ان تتناهبك ،او لخيبة الامل ان تفترسك وتدمر حياتك ، ذلك لان حياتك عزيزة على ، كحياتى . فقرنى عينا وطيبى نفسا ، يا ابنتى ، فلعل ربنا الكريم يرينا ايانا اسعد واهنأ !»

فاجابت : «لقد كنت لى، يا سيدى،وما زلت اكرم الناس والطفهم ، لكننى لن اعيش لاشارككم في السعادة التى تعدنا بها .. ان السعادة ليس لى فيها نصيب بعد على الارض !.. ان نفسى تحن وتشتاق الى الخلاص من هذا العالم ، الذى لم المس فيه سوى الالم والشقاء !.. ليتك تذعن للسيد ثورنهل ، يا سيدى ، فلعل هذا يحمله على اطلاق سراحك من السجن - وعندما اراك حرا طليقا ، عندئذ تخرج روحى من جنبى هادئة راضية مطمئنة !!»

فقلت لها : «مالك ولهذا الكلام ، ياولدى ، ؟! انى لا اشعر بالتعاسة فى هذا المكان ، وما دمت حية على الارض ، لن ارضى ، عن زواجه بغيرك، كى لا ادعه يجعلك فريسة البؤس والعذاب !!»

بعد ذهاب ابنتى ، بدأ السيد جنكنسون يناقشنى في الموضوع نفسه فقال: ان صلابة رأيى يجب ان لا تحول دون الاذعان للسيد ثورنهل ، ان كان في ذلك حريتى واطلاق سراحى . ثم استطرد قائلا : «ان رفضك الاذعان يا سيدى ، ليس قائما على متانة الخلق او استقامة القلب ، لكنه بالاحرى ، على عناد وتشبث بالرأى جنونى ! ان عائلتك يجب ان لا تكون كبش المحرقة من اجل ولد واحد فقط !(يقصد اوليفيا) هذا ، وانك لا تستطيع ان تحول دون زواج السيد ثورنهل بالانسة ويلموت ، لكنك تستطيع ان تصير زواجهما الى شقاء ابدى !!»

فاجبته : «ما دامت ابنتى على قيد الحياة ، يا سيدى ، لن يكون له زواج اخر بغيرها ، زواجا شرعيا في نظرى ، الا اذا انتقلت الى الابدية ! عندئذ ، لن احاول ان اقف حائلا بينه وبين زواجه الثانى !» ..

ـ «اذا كنت تابي الاذعان للسيد ثورنهل ، آمل ان لا يكون ثمت اعتراض على اطلاع السر وليام ثورنهل على قضيتك .. لانه رجل مشهور بعدالته وطيبة قلبه ، وان الشهرة التي له في المملكة لاجل صلاحه وكرم اخلاقه ، قد بلغت غاية رفعتها ! وليس هنالك من يضاهيه او يدانيه شهرة في عدالته ! اشير عليك ان تبعث اليه بخطاب تطلعه فيه على سلوك ابن اخيه .. ولا ريب ، انه لن يتأخر في الرد عليك اكثر من ثلاثة ايام !»

فشكرته على اقتراحه ، وعزمت على العمل حسب اشارته .

فقلت له : «سأعمل حسب اقتراحك هذا ، ولكن ليس عندي ورق للكتابة، فهل باستطاعتك الحصول على القليل منه ؟»

فامتثل لطلبي ، وزودني بالورق اللازم ، ثم جلست واخذت اكتب ..

كنت في حالة من القلق المذيب طيلة الايام التالية ، والتساؤل المرير عن الكيفية التي قبلت بها رسالتي !... لقد مضى اليوم الثالث ، فالرابع، لكنني لم اتلق اي رد عنها ! هذا ، وان ضيق المكان الذي انا فيه، والهواء الفاسد ، اخذت اثارهما تظهر واضحة في صحتي ، وكانت ذراعي (التي اصيبت بالحروق) تنتقل من سيء الى اسوأ ، وكانت صحة ابنتي اوليفيا، تتدهور نحو الحضيض ، يوم بعد يوم ، وكان كل خبر سيء عنها يزيد في خوفي ورعبي ! .. وفي صباح اليوم الخامس من تاريخ كتابي ، هالني خبر ، مؤداه ان اوليفيا اصبحت فاقدة النطق ، لا تحر جوابا ولا تنطق بكلمة ! فعراني اضطراب شديد ، وانا اتقلب على فراش مرضي ، ورأسي لا يستقر على وسادتي !.. فتقت لان اكون قريبا من ولدي ، لاعزيها وارشدها واتقبل منها تمنياتها الاخيرة !! .

ثم جاءني خبر يقول انها تلفظ النفس الاخير !..

وبعد برهة من الزمن ، جاءني زميلي السجين ، السيد جنكنسون يحمل الى الخبر الاخير : ـ ماتت !

وفي صبيحة اليوم التالي ، عاد الي فوجدني مع ولدي الصغيرين ، او رفيقي الوحيدين ، يثرثران ويكثران الكلام في ترديد وتخليط غير مفهوم . ويحاولان تعزيتي ومؤاساتي بحديثهما البسيط البريء !

فقطع السيد جنكسون عليهما ثرثرتهما بقوله : «الان ، وقد ماتت ابنتك . يجب عليك ان تفكر بباقي افراد العائلة وتجرب ان تخلص حياتك ، اذ اراها

تتداعى يوما بعد يوم ، من قلة التغذية الضرورية والهواء الصحى الضرورى للجسم !» .

فاجبته : «لم تبق في نفسى انفة ولا كبرياء ... فالسيد ثورنهل ، قد جار على وظلمنى ، لحقنى منه كثير من الاذى ، وسلبنى شيئا ، اعتبره اثمن واعز على نفسى من كل كنوزه .. وقد اصابت سهامه من قلبى مقتلا ، فاورثنى الكلال ، وجعلتنى اتلوى على فراش الضنى ، اتدرج نحو الهاوية ... ومع ذلك ، لا اشعر الان بالميل الى الثأر من ظالمى ، وانى راغب في الرضى عن زواجه ، ان كان في اذعانى هذا ارضاء له ومبعث لسروره ... فقل له ، ان كان قد اصابه منى شيء من الاذى او الضرر ، فانى لشديد الاسف على ذلك !»

عندئذ امسك القلم وكتب ما كنت قد قلته ، وذيلته بتوقيعى ، ثم بعثنا بالرسالة الى السيد ثورنهل ، مع ابنى موسى ...

ما غاب ابنى موسى عنا قرابة ست ساعات ، حتى عاد الينا ، حاملا جوابا شفويا ، يقول : «ان الاعتذار قد جاء متأخرا ، اذ لم يعد ضروريا وقد سمعت بالرسالة التى بعثتم بها الى عم ى السر وليام ، وبالازدراء الذى قوبلت به ! ان كل طلب او استعطاف يرفع في المستقبل يجب ان يقدم الى وكيلى (المحامى) لا الى بالذات .. ان للسيدتين ـ اوليفيا وصوفيا ـ مكانا رفيعا في نظرى ، وحبذا لو انهما تقومان مقام اى رسول لما اكنه لهما من احترام ومنزلة رفيعة فى قلبى !»

فالتفت عندئذ الى السيد جنكنسون وقلت : «حسنا ، يا سيدى ، انك ترى الان ، الى اى عمق من السفالة والنذالة قد نزل هذا الرجل ، الذى يظلمنى ويحاول اذلالى !»

ما كدت انهى كلامى حتى ظهرت زوجتى وقد ارتسمت نظرات الفزع على وجهها وصرخت :

«صوفيا ! عزيزتى صوفيا ذهبت ! لقد اختطفها بعض الاوباش !»

بينما كانت زوجتى وابنتى تتنزهان ، اقتربت منهما عربة ووقفت ثم ترجل منها احدهم وطوق خصر صوفيا بذراعه وارغمها على دخول العربة معه ، وامر الحوذى ان يتابع سيره ، وما عتمت العربة ان غابت عن الانظار ! .

فصحت عندئذ : « الان قد كملت بلاياى وطمت تعاستى وربت ! لا شيء في الدنيا يستطيع ان يشقينى وان يعذبنى اكثر من هذا !! ماذا اقول ؟ ! من كان يظن ان ابنتى تذهبان عنى هكذا ؟! ولا تبق لى واحدة منهما ؟! يا له من وحش !؟ يأخذ منى ابنتى ، اقرب الناس الى قلبى !! انها كالملاك في سمائها ، وملامحها وجمالها ؟! وكالملاك ايضا في عقلها وذكائها ! والان لم يبق لى واحدة منهما !

فقالت زوجتى : «واسفاه ايها الزوج العزيز ! يبدو لى انك بحاجة الى العزاء والسلوان اكثر منى !باستطاعتى ان اتحمل هذا واكثر منه لو اراك ثابت الجأش ، ساكن البال !يمكنهم ان يأخذوا كل اولادى وكل ما فى العالم ، شريطة ان يبقوك لى !»

وحاول موسى ان يخفف من وطأة الواقع المؤلم ، فقال : «اى والسدى العزيز ، ارجو ان يكون هنالك ما يدخل الفرح الى قلبك ولو قليلا تسلمت اليوم رسالة من اخى جورج يقول لى فيها انه في غاية السعادة والسرور . وان فرقته لم تغادر البلاد بعد ، ويحتمل ان يرفع الى مرتبة اعلى لما له من الاعتبار والمحبة في نفس قائد فرقته الذى وعده بهذه الترقية في وقت قريب !»

فقلت : «رعاك الله يا بنى! واحاطك بكل اسباب الهناء والسعادة حتى تتمكن من اعالة امك المترملة ، بعد مماتى ، وعسى الله تعالى ان يرأف بهذين الطفلين اللذين سيصبحان يتيمى الاب عندما يغيب الثرى ابيهما في جوفه ! .. وادعوه تعالى ان يحفظ لهما برائتهما وسذاجتهما سالمتين من كل تجربة ، وان يكون مرشدهما في سبيل الحق والخير والاستقامة!»

ما كدت انهى دعائى هذا ، حتى سمعت صرخة مدوية في اسفل السجن ، ما لبثت ان تلاشت ، ولكن سرعان ما دوى في اذنى قعقعة اصفاد في الممر المؤدى الى غرفتى ! ثم دخل السجان ، قابضا على رجل ملوث بالدماء مصاب بالجروح ، وقد كبلت ذراعاه ورجليه بالاصفاد ! فاشفقت على هذا البائس عندما دنا منى ، ولكن ... ما كان اشد ذعرى لما عرفت انه لم يكن الا ابنى جورج !

فصرخت : «من اوى؟! ابنى وحبيبى جورج ؟! اراه مجروحا مصفدا ! هل في هذا سعادتك وهل هكذا تعود الى ؟! ليت هذا المنظر يكسر قلبى وينزلنى الى الهاوية !! »

فاجاب ابنى قائلا : « تشجع يـــاابت وتشدد !.. انى استحق العذاب فليحكموا على بالموت ! فلينتزعـــواروحى من بين جنبى !» فقلت لـــه : «كلا يا بنى ، يجب ان لا تموت ابدا ..وانى واثق من انك لم ترتكب جرما يستحق عقابا شديدا كهذا»؟

ـ «اختى ، يا سيدى ، من ان ذنبى لا يغتفر ! فقد تسلمت رسالة مـــن والدتى، تدعونى فيها الى الثار والانتقام من اجل العار الذى وصم عائلتنـــا ... وللوقت استجبت لندائهـــا وانطلقت سريعا لاعاقب من خان عهدنا وغدر بشرفنا ... فبعثت اليه برسالة ادعوه فيها للمبارزة ، فلم يأت هـــو نفسه ، بل ارسل اربعة من خدمـــه لالقاء القبض علـــى ! جرحت اولهم ، الذى حمل علـى مستميتـا وليست ثمت امل في شفائه ! .. ثم هاجمنى الثلاثة الاخرون ، فقاتلت قتـــال القانط اليائس من الانتصار ! واخيرا انتصروا على ، واخذت اسيرا . وقـدصمم الجبان على اقامة دعوى على امام القضاء ! هذا وان براهين الاثبات على جرمى ، لا يمكن دحضها او نكرانهـا ... لذلك ، ارى ان ليس ثمت امـل في العفو !»

— ٢٦ —

دخل السجان غرفتى وقال : «ارجوان لا يسخطك ما انا فاعله ، لانـى لا اعمل الا واجبى ، والواجب يحتم على نقل ابنك الى غرفة اكثر مناعـــة ، وسيسمح له بزيارتك صباح غد !»

فامسكت بيد ابنى وودعتـــه ،مصحوبا بالامن والسلامة ، ونبهته الى ضرورة التفكير بالواجب العظيم الذى ينتظره ، واجب استقبـــال مصيره برباطة جأش وقلب جرىء !..

ثم انكمشت في فراشى مرة اخرى، وجلس احـد ولـدى الصغيريـن الى جانب السرير يقرأ لى .. وبعـــد قليل، ولج غرفتى السيد جنكنسون، وقال لى انهم تلقوا خبرا عن ابنتـــى صوفيا ، يقول انها شوهدت منـــذ ساعتين بصحبة رجل غريب ، وقـد توقفا في قرية مجاورة لتنـاول بعض المرطبات ،ويبدو انهما عائـــدان الى البلدة !.

ما كاد السيد جنكنسون ينهـــى كلامه حتى عاد السجان مسرعا وانبأنى ان ابنتى قد عثر عليها ! ثم جاءنـــى موسى مهرولا ، وقال ان اخته فـــى

الطابق السفلى وانها قادمة الينا برفقة السيد برتشل ، صديقنا القديم !. .

دخلت ابنتى صوفيا وهرعت الى بسرعة يغمرها فيض من الفرح واللذة لتقبيلى ! . .

ثم صاحت بملء فيها : «ها هو ذا يا والدى ، ها هو ذا الرجل الباسل الذى اصبحت انا مدينة له باخلاصى، والى قلبه الجرىء وعصاه القوية مدينة انا بسعادتى واستعادة امنى وسلامى !!»

ثم قاطعها السيد برتشل بقبلة (لان سروره كان اعظم من سرورها هى) فتوقفت عن الكلام !. .

فتنهدت : «اه ، ايها السيد برتشل! ما احقر هذا المكان الذى تجدنى فيه الان ! وشتان بينه وبين ذاك الذى رأيتنا فيه اخر مرة ! لقد كنت لنا صديقا مخلصا . . لقد احسسنا بالاخطاء التى اقترفناها بالنسبة لك بعد تلك المعاملة السيئة التى عوملت بها ، وانى لاشعر بالخجل الشديد ، عندما اشاهدك امامى ، مع ذلك ، ارجو انك تسدل على ستار عفوك ، لان رجلا سافلا حقيرا قد مكر بى ، بابتسامة «الصداقة» المزيفة التى كانت «تلبس» وجهه دوما ، وتستر حقيقة قسماته ، كما يعلو القناع المطلى الوجه ليخفى ملامحه الحقيقية ! . . وهكذا كان هذا الرجل ، عدوا لدودا يعمل على اذلالى وتقويض بنيان حياتى !»

فقال السيد برتشل : «يستحيل على ان اصفح عنك ، ـ لانك لم تأت شيئا يستوجب الصفح . . . لقد شعرت بالخدعة التى ختلتم بها ، والضلال الذى استبد بكم ، لكنى كنت آنئذ ، اضع فى من ان استطيع اصلاح ذات البين ، فما كان منى الان اسفت لكم فقط ، ورثيت لحالكم!»

فقلت لصوفيا: «خبرينى، يا بنيتى عن كيفية نجاتك ومن هم الاوباش الذين اختطفوك ؟؟»

فقالت : «انى بالحقيقة ، اجهل الوغد الذى اختطفنى وهرب بى ، لقد حاول ان يمنعنى من الصراخ والاستغاثة بشتى الطرق ، وكان قد ثبت ستارا خشنا من القماش السميك ، فوق نافذة العربة ، فمزقته بيدى شر ممزق ! واذ ذاك ، لمحت عيناى عن بعد . . ومن تظننى لمحت الا صديقك القديم ، السيد برتشل ؟! رأيته ماشيا بخفته المعهودة ، حاملا عصا غليظة ـ العصا التى طالما اضحكتنا في الماضى! ـ فناديته باسمه، وتوسلت

اليه ان ينجدنى عندئذ ، صرخ صوتا عاليا دوى في تلك الارجاء ، آمرا حوذى العربة ان يقف ، لكنه لم يلتفت الى صوته ولم يعره اى انتباه، بل ضاعف سرعة العربة ! ثم رأيت السيد برتشل راكضا بمحاذاة الخيل وبضربة واحدة استطاع ان يصرع الحوذى ويطرحه ارضا ! وفي الحال، توقف الحصانان من تلقاء نفسيهما ، ثم خرج الوغد من داخل العربة ، ممتشقا حسامه ، وصرخ في وجه السيد برتشل قائلا : «انك تعرض نفسك لخطر عظيم ، يا سيدى وستكون حياتك معرضة لخطر اعظم ان كنت لا تنسحب على التو !!» ثم حمل عليه السيد برتشل وحطم سيفه تحطيما ، وطارده مسافة ربع ميل، لكنه نجا بنفسه ! وبعد قليل ، عاد السيد برتشل الى وقد كست وجهه بسمة الانتصار ! وفي هذه الاثناء ، كان الحوذى يحاول النجاة بالهرب ايضا، لكن السيد برتشل امره ، تحت طائلة الموت ، ان يركبنا العربة ويعود بنا الى البلدة !»

حينئذ «صرخت : «اهلا بولدى ،واهلا بك ايها المنقذ الشهم ! ان المكان وان كان حقيرا فان قلوبنا مستعدة ان تقبلك فيها ... والان وقد انقذت ابنتى ، ايها السيد برتشل فانى اثيبك جزائك بتقديمها لك ان كنت تقبلها منى على هذا الاعتبار . فهى لك ، ان كنت تتنازل فتصاهر عائلة فقيرة جدا كعائلتى .. انما يجب الحصول على مرضاتها ، وانا واثق من حبها لك .. واسمح لى ان اصارحك القول ، يا سيدى ، ان الكنز الذى اقدمه لك ، ليس كنزا يسيرا !»

فاجاب السيد برتشل قائلا: «اظن انك ادرى باحوالى ، وتعلم بانى عاجز عن اعالتها كما تستحق !»

فقلت : «ان كان اعترافك هذا دليلا على انك راغب عن تقدمتى ، فما على الا الاخلاد الى الصمت ... انى لاعرف رجلا اجدر منك بها ... ولو تقدم الوف من الرجال يطلبون يدها للتزوج بها ، فان اختيارى لن يقع الا على السيد برتشل ! الرجل الشهم المقدام !»

لم يجب السيد برتشل على كلامى هذا ، بل لزم الصمت . وصمته دليل على الرفض . وقبل ان يجيبنى على عرضى ، ارسل امرا الى الفندق المجاور لاحضار احسن الوان الطعام للغداء التى يمكن توفرها ، استجابة لهذا الطلب المستعجل ، مع اثنى عشر زجاجة من اجود الخمور والذها ! وللوقت جائنا احد ندل الفندق ،ورتب المائدة وصف زجاجات الخمر عليها واحضر لونين من الوان الطعام المطبوخ جيدا !!

لم تدر ابنتى بعد ، بالحالة الخطرة التى آل اليها اخوها جورج المسكين ، وقد كنا ابعد ما نكون عن اعلامها بذلك ، خشية «الترطيب» من حرارة بهجتها وفرحتها ، ولكن خاب ظنى وطاش سهمى ، اذ عبثا حاولت ان اكسو الابتسام وجهى واتكلف الفرح ، لاننى لم اتمالك نفسى من التفكر بابنى السجين !.. واخيرا اضطررت الى تعكير صفو جذلتنا باطلاعهما ـ صوفيا والسيد برتشل ـ على النوائب التى انتابته ، وتساءلت ان كان بالامكان السماح له بمشاركتنا فرحنا لاخر مرة ، وطلبت ايضا قبول السيد جنكنسون لتناول الغداء معنا ، فاجابنى السجان الى طلبى ، بخضوع غريب ، لم اعهده فيه سابقا !

عندما سمعت قعقعة اصفاد ابنى في الممر المؤدى الى غرفتى ، اسرعت اخته لملاقاته وفي الوقت نفسه ، سألنى السيد برتشل ، ان كان اسم ابنى جورج ، واذ اجبته بالايجاب ، صمت ولم ينبس بكلمة !

حالما دخل ابنى الغرفة ، لاحظت انه كان يتأمل السيد برتشل ، بكثير من الدهشة والوقار ، فادرك هذا ان حقيقة شخصه قد اكتشفت ! عندئذ امر ابنى ان يتقدم ، متخذا لنفسه مقامه الطبيعى (تماما كما يتخذ الملك لنفسه تاجه ولباسه الملكى) . ولم ار قط . شيئا مهيبا جليلا ، كالهيئة التى كست صديقنا السيد برتشل في هذه المناسبة ! فقال مخاطبا ابنى : «ما هذا ايها الولد الطائش ؟! اظن الجريمة نفسها !...»

وهنا توقف السيد برتشل عن الكلام ، اذ دخل الينا السجان ، وقال مقاطعا ، ان شخصا بارزا من كبار القوم قد وصل بعربته ، مع عدد كبير من اتباعه وخدمه ، وانه يرسل عظيم احترامه الى السيد الجالس معنا ، ويرجوه ان يعلمه متى يمكنه استقباله؟

فاجابه صديقنا : «مر الرجل ان ينتظر حتى يتسنى لى وقت او فرصه سانحة لقبوله ! ليس لدى فراغ من الوقت الان ، انى كثير المشاغل !»

التفت ثانية الى ابنى واستطرد قائلا : «ارى انك مرتكب نفس الجرم الذى سبق لى أن انبتك عليه ... لذلك يهيء لك القانون عقابه العادل ، ولعلك تتصور ، واهما ، ان استخفافك بحياتك ، يبيح لك الاستخفاف بارواح الناس وازهاقها !!»

فصرخت : «واسفاه ، يا سيدى ! اشفق على هذا المخلوق المسكين ، وارث لحاله ، كائنا من كان شخصك الكريم ، لان ما عمله لم يكن الا اطاعة لامر أم مغرورة

مخدوعة ! وهاك يا سيدى ، الرسالة التى بعثت بها اليه . وهى الدليل الكافي على غفلتها وعدم تبصرها ! فلعلها تخفف من وطأة جرمه !»

فتناول الرسالة وقرأها بسرعة ، ثم التفت الى وقال : « ليست الرسالة عذرا كافيا ، لكنها تقلل من ذنبه وتحملنى على الصفح عنه ! » ثم امسك بيد ابنى جورج وقال له : « والان ، يا سيدى ارى ان الدهشة تملكتك لدى رؤيتك اياى في هذا المكان ! ما جئت الى هنا الا لكى ارى العدل يأخذ مجراه الشرعى لرجل فاضل ، يكن له قلبى أخلص عواطف الاحترام والاعتبار ! لقد مر زمن طويل كنت فيه شاهدا متخفيا لاعمال البر والاحسان التى عملها والدك ، وطالما تمتعت في مسكنه الصغير باحترام خال من النفاق والمداهنة ... هذا ، وان الغبطه التى امدتنا بها اسباب التسلية واللهو حول موقد النار في بيته فاقت في عنصرها ، البهجة التى تتوفر حتى فى بلاطات الملوك ! .. لقد بلغ ابن اخى خبر اعتزامى المجىء الى هنا ، وعليه ، لا يمكننا ان نحكم عليه او ندينه ، قبل الفحص والاستنطاق ، لئلا نكون جائرين .. وانى ، دون تفاخر اومباهاة ، اصرح بأنه لم يستطع احد ، حتى الان ، ان ينعت السر وليام نورنهل بالجور والاعتساف !!»

وهكذا عرفنا ان الشخص الذى قبلناه في بيتنا واكرمنا وفادته ، باعتباره شخصا اليفا ، ورفيقا مسليا ، لم يكن سوى «السر وليام نورنهل» الذائع الصيت ! وان السيد برتشل المسكين ، الفقير ، كان حقا ، رجلا يملك الثروة الضخمة ، وتستمع اليه البرلمانات والمجالس بالتكبير والتهليل !..

ان زوجتى ، اذ تذكرت الفتها السابقة ، انكمشت منه واجفلت خوفا وفرقا !! لكن صوفيا ، التى كانت تحسبه ملكا لها ، قبل بضع دقائق ، ادركت البون الشاسع بين حظها وحظه ، فلم تستطع ، عندئذ الاحتفاظ بدموعها في ماقيها ..

فصرخت زوجتى ، بصوت يستدر العطف : آه ، يا سيدى ! انى لى ان احظى بعفوك وغفرانك ؟»

فاجابها : «ايتها السيدة الفاضلة العزيزة ، ليس هنالك من اخصه بغضبى وسخطى ، الان ، الا ذاك الذى ارعب صغيرتى المحبوبة ، صوفيا !» ثم اردف موجها الكلام الى صوفيا : « هل تستطيعين معرفة الشخص اذا رأيته ثانية ؟»

فاجابت : « بالحقيقة ، لا استطيع ان اقول جازمة ، من هو ... ولا استطيع التأكد من حقيقة شخصيته بمجرد النظر الى مظهره الخارجي .. لكنني اذكر ، بكل تأكيد ، انى رأيت علامة كبيرة فوق جبينه !»

فقاطع جنكنسون قائلا : « عفوا ، يا سيدى ، ثم التفت الى صوفيا وسألها : وهل تذكرين اذا كان شعر رأسه احمر ام لا ؟»

فصرخت صوفيا : « نعم ! اظن ان شعره احمر !»

ثم التفت الى السر وليام وقال « ألاحظتم ، يا سيدى المحترم ، طول ساقيه ؟»

فاجابه السر وليام : « لا اقدر أن اتأكد من طولهما بالتمام . لكنني مقتنع بشدة سرعتهما ، لانه سبقني بالجرى واعتقد بان الذين يستطيعون ان يفعلوا ذلك قليلون في المملكة !»

عندئذ صاح جنكنسون : « سيدى المحترم ! انى اعرف هذا الرجل ، انه اكبر عداء في انكلترا ، واسمه تيموثى باكستر ، واعرف جيدا اين يختبئ في هذه اللحظة ، فاذا امرتم السجان بان يسمح لرجلين بمرافقتى ، استطيع ان أجيئكم به بعد ساعة !»

ثم ارسل جنكنسون ، يرافقه سجانان للبحث عن باكستر .

ودخل ولداى الصغيران غرفتى ، وللوقت تسلق «بل» بذراعيه عنق السر وليام ليقبله ، فحمل الولد وهو في ثيابه الرثة واجلسه على ركبته ، وصرخ به :

« ايه ، بل ؟ ايها الفتى البادن ! اتذكر صديقك القديم ، برتشل ؟ وانت ، يا دك ، ايها الفتى الكريم ، ستجدان الان انى لم انسكما !» ثم قدم لكل منهما قطعة من الكعك كبيرة ، فالتهماهما ! مع انهما لم يكونا قط ولدين نهمين ، والسبب في ذلك ان فطورهما كان صباح ذلك اليوم «فقيرا» جدا ..

ثم جلسنا نتناول طعام الغداء .

— ٢٧ —

ما كدنا ننتهى من تناول طعام الغداء ، حتى وردت رسالة اخرى من السيد ثورنهل الى عمه ، يسأله فيها السماح له بالمثول امامه لكى يبرهن له على براءته .. فاجابه السر وليام الى طلبه ..

دخل السيد تورنهل باسما،واتجه في الحال نحو عمه ليعانقه ، لكن السر وليام دفعه عنه ، ناظرا اليه بأنفة وازدراء ، وقال له : « ان اكره ما اكرهه هو التظاهر الكاذب بالحب والعطف ! ان السبيل الوحيد الى قلبي هو الشرف والكرامة وعزة النفس ٠٠ لكنني لا ارى هنا الا النفاق والجبن والجور ٠٠٠ كيف ارى هذا الرجل المسكين ، الذى اعترفت له بصداقتك، مظلوما هكذا ومهانا ؟! لقد اعلنت للجميع صداقتك « الحميمة » ، له ، وكمكافأة لحسن ضيافته وكرمه ،اسأت الى طهارة ابنته وجرت عليها ، ثم القيته في غياهب السجن ٠٠»

فاجاب السيد ثورنهل : « انا لاانكر بانى ظهرت في بعض اماكن اللهو والاندية العامة ، مصحوبا بابنة هذا الرجل ، فاخذت السنة السوء تلوك الاشاعات الكاذبة وتذيع قصصا ملفقة تناقلتها الشفاه ، ومن هذه الاشاعات الكثيرة ، قولهم انى اسأت الى عفاف ابنته وطهارتها ، عندئذ ذهبت الى ابيها بنفسى ، لكى اوضح له القضية على حقيقتها ، لكنه استقبلنى بالاهانات والشتائم !٠٠ اما بخصوص كونه هنا في السجن ، فمحامى ووكيل املاكى يستطيعان ان يشرحا لك كل شيء ، لانى فوضت اليهما ادارة شؤون اعمالى ادارة تامة ! ٠٠ فان كان مديونا لى وغير راغب في دفع ديونه او عاجزا عن ذلك ، فانى لا ارى ظلما او عدوانا في الالتجاء الى الطرق القانونية للحصول على الدراهم التى لى عليه؟»

فاجاب السر ويليام : ان كان ما قلته صحيحا ، فانى لا ارى شيئا في عملك هذا لا يوجب الصفح والعفو ـ على كل حال ، كان باستطاعتك ان تكون اكثر شهامة ومروءة !»

فاجاب السيد ثورنهل : «لا يستطيع ان ينكر شيئا مما قلته ، وهو لا يجرؤ رد تهمة واحدة ـ انى اتحداه بذلك :ويشهد خدمى على ان ما قلته حق!٠٠ والان وقد دللت على براءتى ، لايسعنى الا الصفح عن هذا السيد واغضاء الطرف عن كل اساءة بدرت منه ، ماعدا واحدة ـ : فقد حاول ان يقلل من احترامى لك ! وهذا امر لا استطيع الصفح عنه ابدا ! لقد بعث اليك برسالة في وقت كان فيه يتهيأ ابنه لقتلى شر قتلة ٠٠٠ لذلك ، حزمت امرى على ترك العدالة تسير في مجراها الطبيعى ٠٠٠ وها هو نص خطاب التحدى الذى ارسله الى يدعونى لمبارزته ، فهل يستطيع نكرانه !؟ ويشهد على صحته اثنان من خدمى وثالث مجروح جرحا فيه خطر على حياته !»

فصاحت زوجتى : « يا لك من وغد لئيم الم يكفك بعد ما انتقمت بـه لنفسك حتى تشعر ابنى المسكين بوطأة عنفك وصرامتك ؟ ارجو ان السر وليام الصالح سيحمينا ويردكيد عدونا عنا ، لان ابنى برىء منه برائة الطفل الرضيع !»..

فاجاب الرجل الطيب : « سيدتى، انى اريد سلامة ابنك تماما كما تريدينها انت . الا اننى ارى جرمه واضحا ، واذا اصر ابن اخى على مداعاته فلا شىء يمكن ان يحول دون ذلك !!»

حينئذ ، دخل الغرفة جنكنسون والسجانان ، وهما يجران رجلا مديد القامة ، حسن الهندام !

فقال جنكنسون : « ها هو ذا باكستر ..»

في اللحظة التى راى فيها السيد ثورنهل السجين وجنكنسون ، اجفل الى الوراء ، واخذ الرعب منه كل ماخذ ، فكان وجهه الممتقع دليلا واضحا على شعوره بخطورة جرمه وانحطاط اخلاقه ، فادرك ـ اذ ذاك ـ ان سفالته ودعارته قد اكتشفتا ، وحاول الانسحاب من الغرفة ، لكن جنكنسون ادرك ما كان يجول في خاطره فوقف في طريق انسحابه وصرخ به :

« الى اين ايها السيد ؟ هاها ، ولماذا علا وجهك الحياء من صديقيك القديمين جنكنسون وباكستر ؟.. ان الرجال العظام ينسون اصدقاؤهم اما نحن ، فلن ننساك ..» ثم التفت الى السر وليام وقال : « ان اسيرنا باكستر قد اعترف بكل شىء ، ايها المحترم ، وانه هو الذى قيل انه جرح جرحا خطرا من قبل ابن هذا الرجل !.. ويقول ايضا، ان السيد ثورنهل قد امره باختطاف الانسة صوفيا ، وانه هو الذى خلع عليه هذه الثياب الفاخرة التى عليه ، وامده بالعربة !.. لقد رسما خطة بارعة للكيد بالانسة صوفيا ، فتآمرا على ان يختطف باكستر الانسة الى مكان ما امين ، حيث يتهددها ويرعبها ثم يأتى السيد ثورنهل ـ كان القدر قد ساقه اليهما صدفة ـ فينقذها ! وهكذا يتأتى له فرصة سانحة لاكتساب عطفها وحبها ، باعتبار انه منقذها الاكبر .. هذه هى المكيدة التى اتفقا عليها للغدر بفتاة طاهرة بريئة ؟»

عرف السر وليام السترة التى كانت على باكستر ، لانه كان قد رآها سابقا على ابن اخيه ، مما ثبت الجزء الاول من الرواية .. وقد ايد

باكستر نفسه ، الرواية بكـــل تفاصيلها ، واضاف اليهـــا بعض التفاصيل الاخرى التى لم يخبـــر جنكنسون بها .. منها ان السيـــد ثورنهل كان قد اعرب له عن حبـــه للاختين في آن واحد !!

فصرخ السر وليام : «يا للسماء !ويا له من سافل حقير ، هذا الـــذى كنت احتضنه وارعاه ! ثم يظهـــر «تعلقه» بالعدالة العامة ! فليكن له ما يريد !»

عندئذ ، توسل اليه السيدثورنهل بكل تواضع ومذلة ، ان لا يقبل شهادة مثل هذين الحقيرين السافلين ، ضده، وطلب استدعاء خدمه لاستنطاقهـــم وسماع شهاداتهم »!

فقال السر وليام : « خدمك؟! انهم ليسوا خدمك بعد الان ، مع ذلك ، لنسمع ما يقولونه ، ادع الساقى»

لما دخل الساقى ، لاحظ ان قـــوة سيده القديمة ، قد زالـــت وتلاشت !

فصرخ السر وليام والعبوسة بعـــد منعقدة على جبينه : قل لى ، هل رأيت سيدك وهذا الرجل معا في وقت مـــن الاوقات ؟»

فاجاب الساقى : نعم يا سيـــدى المحترم ، لقد رأيتهما اكثر من الـــف مرة ومرة ، وانه هو الرجل الذى يأتيه دوما بالسيدات !!

فصرخ جنكنسون : والان ، قـــل للسر وليام ان كنت تعرف شيئا عنى!

فاجاب الساقى : لا استطيع القول انى اعرف الشىء الكثير عنك ، وانمـــا اذكر انه في الليلة التى اختطفت ابنـــة هذا الرجل الشيخ ، كنت واحدا من الذين رافقوها الى بيتنا !»

فسأل السر وليام : « اتعنى ايهـــا الساقى ، ان هذا الرجل هو الـــذى جاء بابنة الرجل الشيخ الى بيتكم ؟»

ـ « لا ، لم يجىء هو بها ، ان السيدثورنهل نفسه قام بذلك ، لكنه هـــو الذى احضر الكاهن الذى تظاهر بعقد قرانهما !»

فاجاب جنكنسون : « هـــذه هى الحقيقة بعينها يا سيدى ، ولا استطيع تكرانها !»

فصاح السر وليام : « يا الهى ! ان جرمه واضح ، الان ، وضوح الشمس في رابعة النهار !» ثم التفت الى السجان وامره قائلا : «حل قيود هذا الضابط

الشاب السجين ، واطلق سراحه ،فالقاضى الذى سمع الدعوى المرفوعة على السيد جورج ، صديقى ....وساشرح له القضية بالتفصيل ، واخذ منه امرا باطلاق سراحه في الحال !»

وفي تلك اللحظة مثل امامنا في غرفتى الانسة ارابلا ويلموت وابوها فقد رأيا احد ولدى الصغيرين يلعب في الشارع اثناء مرورهما من هناك ، فعلمت منه من امرى ما علمت ،لكنها لم تعلم ان السيد ثورنهل كان السبب في ذلك كله . فاعترض والدها على عدم لياقة زيارتهما لنا في السجن لكن اعتراضاته كانت عديمة التاثير،اذ ما لبثت ان امرت ابنى الصغير بان يرشدها الينا ! واذ رأت السيدثورنهل معنا ، ظنت انه قد اتى لمساعدتنا ، فالتفتت اليه وصرخت قائلة :

«حقا يا عزيزى السيد ثورنهل ،انها لقساوة منك ان تأتى الى هنا بدونى ، وان تخفى عنى المصائب والارزاء التى المت بعائلة عزيزة على كل منا ... وانت تعرف ان سرورى يبذل العون لها لا يقل قوة عن سرورك انت .. ولكن يظهر انك تسر بخدمة الناس في الخفاء ، مثل عمك السر وليام ؟»

فصاح السر وليام : ماذا تقولين ؟!أيسر بفعل الخير !؟ لا ، يا عزيزتى ، ان مسراته لا تقل عنه خسة ونذالة !انه اللؤم بعينه ! لقد مكر بابنة هذا الرجل المسكين ، وتآمر على اخته ورمى بابيها في غيبة السجن ، وكبل ابنه البكر بالاصفاد ، لتجرؤه على تحدى من غدر بها ولوث طهارتها ! وانه ليسرنى حسن حظك في النجاة من الزواج بمخلوق دنس كهذا ، فاهنئك واشاركك فرحك بحظك السعيد .»

فصاحت الفتاة الجميلة : يا لسذاجتى ! كيف خدعت ؟.. لقد اخبرنى السيد ثورنهل ان بكر هذا الرجل ، النقيب جورج برمروز قد غادر البلاد الى امريكا ، مع عروسه !»..

فرفعت زوجتى عقيرتها ، قائلة :لم يقل الا كذبا ، يا احلى الاوانس ! ان ابنى جورج لم يغادر المملكة ولم يتزوج بعد .. ومع انك هجرته وتخليت عنه ، فانه احبك حبا عظيما لدرجة انه لم يعد يفكر بفتاة سواك !»

عندئذ دخل ابنى ، بطلعته الجميلة،مرتديا لباسه العسكرى الظريف وقد بدا كاجمل فتى في مثل هذا اللباس.

ان نظرات الانسة ويلموت الملتاعة، ودموعها الدافقة ، قد كشفت عن احاسيس قلبها الحقيقية ، فصرخت تقول: لقد خدعت خداعا دنيئا ، ولا شيء يستطيع ان يحملني على نكث عهودي معك ، فان لم استطع ان اكون لك ، فلن اكون لسواك ابدا !»

وكم كان سرورنا عظيما ، عندما رأينا الواحد يرتمي سريعا بين ذراعي الاخر !!

فقال السيد ثورنهل : « ارى انه من الصعوبة بمكان ان اتوقع اجراء العدل لي في هذا المكان . لكنني عازم على اجراءه مهما كلف الامر ! فمهر الانسة ويلموت لا يستطيع احد ان ينتزعه مني ! لان الصك في حوزتي ، وهو في حرز حريز ! والحق ان مهرها لا «شخصها» هو الذي اغراني على الاقدام على طلب يدها للتزوج بها .. وما دام المهر بيدي ، فليأخذ «الاخرى» من شاء وأحب !».

انتفضنا رعبا لهذه الفكرة الخبيثة اذ ادرك السر وليام حق ابن اخيه في المطالبة بمهر الانسة ويلموت ، لان اتفاقية الزواج بين الطرفين ، كانت قد أجريت على يده هو !

واذ ادركت الانسة ويلموت ما حل بمهرها ، التفتت الى ابني وسألته ان كانت قيمتها قد نقصت في نظره بسبب فقدان مهرها ؟!

فاجابها : « انى احتج على سؤالك هذا ، ان ضياع مهرك يزيد في سروري لانه السبيل الى اقتناعك باخلاص حبي لك ...)

ـ « اذن ، فليستول هذا التعس الشقي على مهري ! فان كنت سعيدا بدونه فانا كذلك ، اه ما اعظم المبادلة التي قمت بها الان ! لقد استبدلت اسوأ الرجال باعزهم على وافضلهم !»

فصرخ جنكنسون : « كيف ذلك !» ثم التفت الى السر وليام وسأله : «.. ارجوك يا سيدي المحترم ، ان تقول لي ان كان باستطاعة السيد ثورنهل الاحتفاظ بمهر الانسة ويلموت وقد سبق له وتزوج باخرى ؟»

فرد السر وليام ، « كيف توجه سؤالا كهذا لا يدل الا على غباوة صاحبه ؟ طبعا لا يقدر على ذلك !»

ـ « اذن ، يجب ان اعلن صراحة ان عقد الزواج هذا ، لا قيمة له على الاطلاق ... لان السيد ثورنهل ، متزوج فعلا !»

فصرخ السيد ثورنهل : « انت تكذب ! لم اتزوج قط شرعـــا بامرأة !»

ـ عفوا ، يا سيدى ، انك متزوج ورجائى ان تعترف اعترافا لائقـا بالجميل لصديقك جنكنسون الشريف الذى سيحضر لك امرأتك ..»

وللوقت ، خرج من الغرفة ومـــالبث ان عاد سريعا ..

فصرخت : يا للدهشتى ! هل ارى ابنتى المائتة ؟ وهل المسها ؟ نعم ! انها هى ! انها ابنتى ! فيا لسعادتى وغبطتى .. كنت اظن انك رحلت عنا ، يا اوليفيا ، الى الابد ! مع ذلك ، اراك ، والمسك بيدى .. نعم، ويجب ان تعيشى لكى احظى ببركتك !»

ثم قال جنكنسون للسيد ثورنهل:« هذه هى المرأة التى عقد زواجـك عليها «شرعا» وبكل ما تحمل هـــذه الكلمة من معنى ! وهاكم البراءة .. اخرجها من صدره ثم وضعها في يـد السر وليام واستطرد الى القول : لقد طلب الى السيد ثورنهل ان احصل له على براءة مزيفة وكاهن مزيف متنكر لكننى جئته ببراءة صادقة وكاهـــن حقيقى فاجرى قرانهما اجراء لا يقل احكاما عن اجراء قران اى كاهن اخر، وكانت غايتى من الاحتفاظ بالبراءة، الحصول على المال عن طريق تهديد السيد ثورنهل بها فيما بعد ...»

فسألته : وكيف سمحت لنفسك بأن تضيف الى بؤسى وشقائى ، قصة وفاة ابنتى ؟؟

فاجابنى جنكنسون ، قائلا : ان الجواب على سؤالك بسيـــط جدا ! فقد خطر لى ان الوسيلة الوحيـــدة لتحريرك من ربقة السجن واطـــلاق سراحك ، هى حملك على الخضـــوع للسيد ثورنهل وموافقتك على زواجه بالفتاة الاخرى ، لكنك كنت قد قطعت على نفسك عهدا ، ان لا تذعـــن ولا توافق طالما ابنتك في قيد الحياة ! فلم يبق اذ ذاك ، طريق اخر اسلكـــه للوصول الى تحريرك واطلاق سراحك الا طريق اقناعك بان ابنتك قد فارقت الحياة ، بعد ان حملت زوجتك عـلى الاشتراك معى بهذه «المؤامرة » ولم تتح لنا الفرصة المناسبة لاطلاعـــك على الحقيقة ، حتى الان !»

لما وجد السيد ثورنهل ان تأكيداته قد خذلته ونبذته ظهريا ، سقط على ركبتيه امام عمه ، واخذ يلتمس منه الرحمة والشفقة ..

فاجابه السر وليام : ان رذائلـك واثامك اعظم جدا من ان تستحق العفو

والغفران ، مع ذلك ، لن تهمل اهمالا تاما .. فستعطى من المال كفافك ، اما القسم الباقى منه ، فسيكون منكلهذه السيدة ، زوجتك ، الحارسة الوحيدة على الاملاك والعقارات التى كانت فيما مضى ملكا لك ! ولن تتوقع المزيد من المال الا عن طريق محبتها وعطفها هى وحدها ..»

حالما تراكنا السيد ثورنهل التفت السر وليام حوله ، ثم قال :

« اظن ان الجميع قد نالوا حظهم من السعادة الكاملة ما عدا واحدا او اثنين ! ولم يبق امامى سوى «عمل» واحد عادل ، يجب القيام به .. انك عارف ولا شك ، يا سيدى ، بعرفان الجميل والحقوق التى نحن مدينون بها للسيد جنكنسون ... لذلك يجب علينا مكافأته .. واعتقد ، ان بامكان الانسة صوفيا ان تجعله سعيدا جدا وسيكون له منى خمسماية ليرة استرلينية كمهر منها !» حينئذ صرخت صوفيا :

«أأتزوجه ؟! لا . لا ، يا سيدى ، لن اقبل بهذا ابدا ! انى افضل الموت العاجل على ذلك .. » وبكت

فقال السر وليام : « اذا كان الامر كذلك ، واذا كنت تأبين الزواج منه ، اذن فما على الا ان اجعلك شريكة حياتى !» ثم ضمها الى صدره وضغط عليها بشوق وحنان وصاح : « يا أجمل من رأيت بين البنات واكثرهن ادراكا ورقة ، كيف يمكنك ان تتصورى ان «برتشلك» يغدر بك ويخاتلك ؟.. او ان السر وليام ثورنهل يكف عن الاعجاب بفتاة لم تحبه الا لشخصه فقط .. لقد مرت سنون عديدة وانا ابحث عن امرأة تجهل ثروتى ، وترضى الزواج بى لمجرد كونى رجلا فحسب ! وبعد ان حاولت ذلك عبثا الا يجب ان يكون ابتهاجى عظيما «بانتصارى» على فتاة جمعت الى رهافة احساسها ورقة شعورها ، جمالا الهيا أخاذا ... » ثم التفت الى السيد جنكنسون وقال : حيث اننى لا استطيع التخلى عن «حبوبتى» هذه فكل ما اقدر على مكافأتك به ، هو ان اهبك مهرها .. فاتصل غدا بمحامى فيسلمك خمسماية ليرة استرلينية .»

* * *

وعندما انفجر عمود الصباح ، استقيظت على نور يوم جديد من ايام سعادتنا الوليدة ، فرأيت ابنى البكر جالسا بالقرب من فراشى ، اذ جاء

ليزيد في سروري وفرحي ، باعلامي ان دولاب القدر قد دار دورته لصالحي ! فاخبرني ان التاجر اللندني ، الذي كان قد اعلن افلاسه في لندن واضاع على كل اموالي المودعة لديه ، قد القى البوليس القبض عليه في «انتورب» ، حيث اكتشفوا ان المال الذي كان في حوزته ، ربا كثيرا على الديون التي كانت عليه ، وهكذا سيسترد الدائنون جميعا ، كل اموالهم منه كاملة غير منقوصة ...

لا حاجة بي الى وصف الفرح العظيم الذي انتابني بالعرس المزدوج الذي احتفل به في كنيسة القرية - عرس ابني جورج وصوفيا - ولا بمأدبة العرس التي جمعت الجميع حولها ، في جو عابق بالمرح البريء والغبطة الميلاء ... ولم تفتنا دعوة جارنا السيد فلامبورو وابنتيه لمشاركتنا سرورنا وافراحنا ...

وفور انتهائنا من المأدبة ، امرت برفع المائدة بعيدا ، لكي تتسنى لي رؤية افراد العائلة ، مرة اخرى ، مجتمعين معا حول الموقد البهيج ! فجلس ولدي الصغيران على ركبتي بينما جلس الاخرون كل منهم بجانب رفيقه ..

والان ، وقد تحققت جميع امانيي العذاب ولم يبق امامي ما يشغل فكري ، او يقلق بالي ، فلقد تعلمت ان اكون صبورا على المكاره ، متجلدا في الشدائد ، خاضعا في الملمات ... لذلك ، يجب علي ان اشكر الله سبحانه وتعالى ، على عظيم رحمته وكثير بركاته وحنانه ..

- انتهت -

بيروت : ٥ - ١٠ - ١٩٥٤

# تصويب الاخطاء المطبعية

| صفحة | سطر | خطأ | صواب |
|---|---|---|---|
| ٦ | ٥ | عيابه | غيابه |
| ٦ | ٢٦ | نقاصه | نقائصه |
| ٧ | ١ | بذهبون | يذهبون |
| ٩ | ٢٠ | تلفتت | تلتفت |
| ٩ | ٢١ | بدفع | برفع |
| ٩ | ٢٢ | ولم يكن | ولو لم يكن |
| ١٠ | ١٠ | المقيمين | المتزوجين |
| ١٢ | ٢٨ | كآبو | كآبة |
| ١٣ | ٢١ | بسلام | بسلامة |
| ١٣ | ٢١ | مباديء | مبادئي |
| ١٤ | ١١ | مزراعة | مزرعة |
| ١٦ | ١٨ | خبرة | خبره |
| ١٦ | ٢١ | فارغ | فارع |
| ١٧ | ٢٧ | السيد | السر |
| ١٨ | ٧ | حياته | هباته |
| ٢٠ | ١٢ | الشعبية | الشجية |
| ٢٦ | ١٠ | عير | غير |
| ٣٨ | ١٣ | تركمنا | تكرمنا |
| ٤١ | ٢٢ | اخلاقها | اخلاقهما |
| ٤٢ | ٢٥ | التنؤ | التنبؤ |
| ٤٩ | ٢٥ | غبر | غير |
| ٦٨ | ١٢ | خائلًا | قائلًا |
| ٨٦ | ٥ | ممداً | ممدداً |
| ٩١ | ٢٣ | خطرث | خطرت |

قريبا يصدر :

# الفنان الاحمر

تأليف الروائي الانكليزي الكبير

## سومرست موم

تعريب

## حسن الناطور

تصدر في ١ و ١٥ من كل شهر

١١٢ صفحة – ٥٠ غرشاً

توزيع : المكتب التجاري - بيروت

بقلم : خيرات البيضاوي

**وهي السلسلة الوحيدة في العالم العربي التي تجلو غوامض المشاكل العالمية ، وتشجب الاستعمار الذي هو في جميع صوره واشكاله ، آفة انسانية تغض من قدر الكرامة الانسانية وتؤيد جهاد كل شعب يهب في اية ناحية من الدنيا للتخلص من اضراره واوضاره ومحو دنسه وعاره .**

**صدر منها :**

١ ــ حرب التحرير في الهند الصينية

٢ ــ ايران ترقص على كف عفريت (نفد)

٣ ــ وميض النار في المغرب العربي (نفد)

٤ ــ المانيا بين الشرق والغرب

٥ ــ العملاق الأصفر

٦ ــ الهند وسياسة الحياد

يصدر قريباً الكتاب السابع :

سياسة اميركا الخارجية


# دار البيضاوي

شارع البرلمان ــ بناية بشارات

ص. ب. ٢٩٩٥

بيروت ــ لبنان

DATE DUE

غولد سميث ،اوليفر
قس واكفيلد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031691

American University of Beirut